شرح
الرسالة الشافية
في إعجاز القرآن الكريم

للإمام

عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني
(٤٠٠ ـ ٤٧١ هـ)

الشارح

الدكتور عمر محمد عمر باحاذق
عضو هيئة التدريس بالجامعة الإسلامية
بالمدينة المنورة

دار المأمون للتراث

الطبعة الأولى
١٤١٨ هـ - ١٩٩٨ م



دار المأمون للتراث

دمشق - ص.ب ٤٩٧١ - هاتف ٢٢٢٩٨٢٠ - فاكس ٢٢٢٧٤٦٩
بيروت - شارع قردان - ص.ب ١١٣/٦٤٣٣ - هاتف ٨١٠٥٧١

بسم الله الرحمن الرحيم

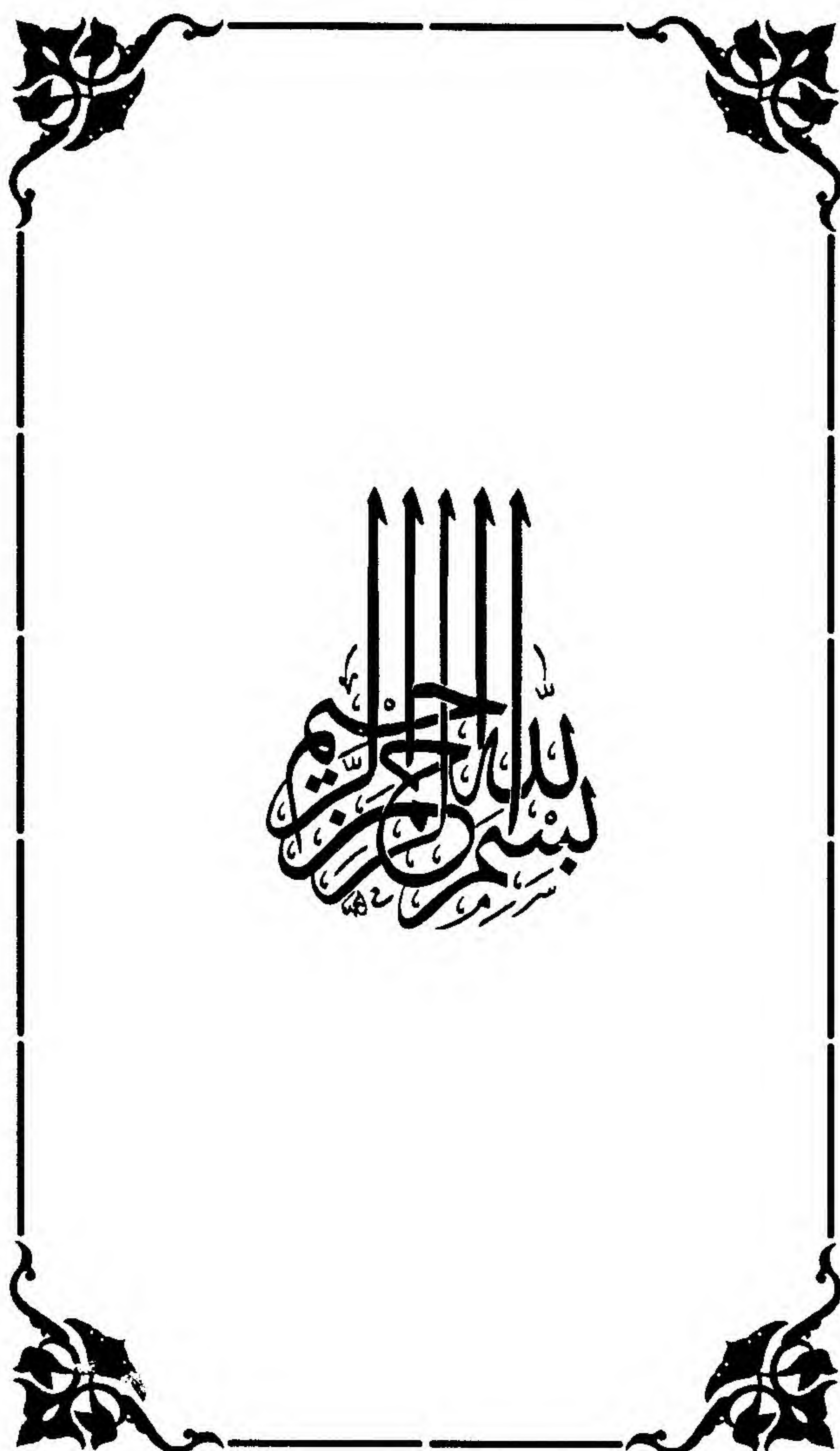
قال تعالى :

﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ
بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾

الإسراء (٨٨)

﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ
ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

الحشر (٢١)


بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

إلى أخي العزيز الشيخ صالح محمد عمر باحاذق

إلى أخي العزيز الأستاذ حمزة محمد عمر باحاذق

حفظهما الله آمين

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين صاحب الوجه الأنور والجبين الأزهر سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه السادة الغرر ذوي القدر العليّ والفخر الواضح الجلي أبي بكر وعمر وعثمان وعلي ، وعلى كافة الصحابة والقرابة أجمعين .

وبعد : فإنَّه من يُمْنِ الطَّالع السَّعيد أَنْ يَسَّرَ الكريمُ بإحْسَانِه أَنْ تمتدَّ أَيَادِي الفضل والإحسان بمطالعة كتابه الكريم والعيش على مائدته ، فَتَمَّ بجوده وإحسانه إخراج وشرح رسالة أُخرى مما يدور حول إعجازه ، فكانت هذه الرسالة « الشافية » للإمام عبد القاهر الجرجاني .

والرسالة الشافية في إعجاز القرآن الكريم تُعدُّ خَرِيْدَةً[1]

---

(١) الخريدةُ : الدُّرَّةُ التي لم تُثقَب ، وهي من النساء البِكْرُ الحَيِيَّةُ . تهذيب اللغة لأبي منصور الأزهري الجزء السابع / ٢٦٩ وقد سمَّى العماد الأصبهاني كتابه « خريدة القصر وجريدة العصر » .

في هذا الباب وقف من خلالها الإمام الجرجاني على بيان كثير من الصور الجميلة التي تقنع وتشفي في إعجاز القرآن الكريم ، وتثبت انقطاع السابقين واللاحقين عن مجاراة القرآن الكريم أو معارضته ، وتسليمهم بذلك تسليم الواثق من العجز ، سواء عن طريق الحال أو المقال ، فرحم الله الجرجاني رحمة واسعة .

الموضوع الذي أتحدث فيه موضوع شريف القدر عالي الشأن عظيم البرهان ، يدور حول إعجاز القرآن في رسالة (الشافية في إعجاز القرآن الكريم) للإمام عبد القاهر الجرجاني وقد حاول الإمام الجرجاني من خلالها التدليل على شرف القرآن وعلو منزلته في البيان ، وأنَّهُ المعجزة التي لا تنقطع على مدى الدهور والأزمان ، كيف لا ، وهو تنزيل العليم الخبير !

لقد عَكَفَ الإمام الجرجاني في هذه الرسالةِ يناقشُ وَيُفَنِّدُ أَسبابَ عجزِ العرب عن معارضة القرآن ، وهم المُرْمِدُونَ في هذا الشأن أَصْحَابُ المنطقِ الجليّ واللَّسَن والفصاحة والبيان وأن ذلك أَمرٌ متعذِّرٌ عليهم وهو يعود إلى « نظمه المعجز » والذي جعلهم يحيرون ولا يكادون، وقد كانوا يجدون له وقعاً يريبهم ويحيرهم فلم يتمالكوا أن يعترفوا به بعض الاعتراف ، فإذا كان هذا شأنهم وهم أَصحابُ السليقة والفطرة السليمة المتصرفون في أودية الكلام العارفون بنظومه المُرْمِدُونَ في هذا الشأن حَرَشَةُ الضَّبِّ وَأَكَلَةُ اليَرْبُوعِ مَضَّاغَةُ الشِّيحِ

والقَيْصُوم أَصحابُ الفطرِ السَّليمة والعقولِ الراجحة المستقيمة فغيرهم في العجز من باب أَولى .

ولايزال الإمام الجرجاني يواصل تفنيده لتلك الشُّبه والاعتراضات التي يسوقها عن أولئك المغرضين ، وحيث أَنَّ الحديثَ ذو شجون فهو لا يكاد يجيب عن شبهة حتى يَرُدَّ على شبهة أُخرى تتولدُ عنها وتتفرع ، ومن هذه الشُّبَهِ قول بعضهم ممن يحاول التشكيك بأنّه يمكن أَنْ يُوْجَدَ في الزمان الفَذِّ الفرد الذي يستطيع أَنْ يخوض في أَفانينِ القول ويبرز في هذا الشأن ويشار إليه بالبنان ، كامرىء القيس بن حُجْر الكندي في القريض ، فما الذي يمنعه أن يجاري القرآن أَو يعارضه ؟ ويرد عليهم الإمام الجرجاني هذه الشبهة في مناقشة موضوعية لا يلبث أن ينقطع أمامها الخصم ، ويسلم تسليم الواثق بالعجز وقد قمتُ بفضل الله وتوفيقه بشرح هذه الرسالة وإيضاح ما تضمنته من دقائق ، وكل ذلك في تبصُّرٍ وتمعّن لا تكاد فيه كلمة تلوح إلا وتأخذ حقّها من الشرح والتوضيح ، وكنت أجعل المتن - أي : رسالة الإمام الجرجاني [الشَّافية في إعجاز القرآن الكريم] - بين قوسين هكذا : [. . .] ثم آخذ في الشرح والتفصيل ، موضحاً للكلمات الغريبة ، مترجماً للأعلام ، مفصلاً الغاية والغرض الذي عناه الإمام الجرجاني من خلال رسالته ولاسيما في رد الشُّبهِ والاعتراضات والتي امتلأت بها الرسالةُ في أُسْلُوبٍ أَدَبِيٍّ بلاغي يقربُ الموضوعَ إلى ذهنِ السامعِ والمتلقي .

والرسالةُ بعد هذا مليئةٌ بالمُلَح والنكاتِ البلاغيةِ والطرائفِ الأَدبية فهي جامعةٌ مانعة ؛ وتُعَدُّ هذه المحاولةُ في شرح الرسالة فريدةٌ في بابها ، ولا أبالغ إذا قلتُ إنَّه أولُ عملٍ من نوعهِ يتناولُ رسالةَ الإمام الجرجاني (الشافية في إعجاز القرآن الكريم) بالشرحِ والتوضيحِ .

هذا ولايزال القارىء والسامع لهذه الرسالة يجدُ فيها ما يُشَنِّفُ الأَسماعَ ويبعثُ على الطرب والاسترواح . والله أَسألَ أَنْ يجعلها في ميزان الحسنات وطريقاً إلى رياض الجنات إنَّه سميعٌ مجيب ، وصلى الله على سيدنا ونبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً .

وتم الفراغ منه في العاشر من شعبان عام ألف وأربعمائة وثمان عشرة للهجرة النبوية

د . عمر بن محمد باحاذق
المدينة المنورة
١٠/٨/١٤١٨ هـ

تعريفٌ بالإمام الجُرْجَاني[1] :

أبو بكر عَبْدُ القَاهِرِ بِنْ عَبْدِ الرَّحْمٰنِ الجُرْجَانِي ولد بجرجان سنة ٤٠٠ هـ أَخذ النحو عن أبي الحسين محمد الفارسي وكان من كبار أئمة العربية والبيان ، فقيهاً على مذهب الشافعية ، والحق أن الإمام عبد القاهر كان شخصية فذة ومن الشخصيات التي وقفت على أسرار البيان العربي ودقائقه ، وله مصنفات عدة منها : أسرار البلاغة ، ودلائل الإعجاز والرسالة الشافية في إعجاز القرآن ، والعمدة في التصريف ، وله كتاب المغني في شرح الإيضاح في النحو لأبي علي الفارسي ثلاثون مجلداً . . توفي سنة ٤٧١ هـ .

---

(١) ترجم للإمام عبد القاهر الجرجاني السيوطي في بغية الوعاة / م٢/ ص/ ١٠٦ ، وتاج الدين السبكي في طبقات الشافعية ، وابن الأنباري في كتابه نزهة الألباء في طبقات الأدباء ، والقفطي في إنباه الرواة على أنباء النحاة ، وابن شاكر في كتابه فوات الوفيات ، وابن العماد الحنبلي في شذرات الذهب في أخبار من ذهب .
وعلى الرغم من منزلة الإمام الجرجاني ومكانته العلمية إلا أن ترجمته لا نظفر منها إلا بالشيء اليسير والنذر القليل . .
وجُرْجَان بالضم وآخره نون : مدينة مشهورة عظيمة بين طبرستان وخراسان قيل أول من أحدث بناءها يزيد بن المهلب بن أبي صفرة ، وجرجان مدينة حسنة على واد عظيم بها الزيتون والنخل والجوز والرمان وبها أَحجار كبيرة ولها خواصّ عجيبة . معجم البلدان / لياقوت الحموي / تحقيق فريد الجندي / الطبعة الأولى / الجزء الثاني / (١٣٩) .

دور الإمام الجرجاني في قضية الإعجاز :

لقد تزعم الإمام عبد القاهر الجرجاني « قضية النظم » في إعجاز القرآن الكريم ، وقد فصل القول فيها وعرضها عرضاً مستفيضاً ، وانتقل بها من حيّز الألفاظ إلى حيّز المعاني ، ويقول بأنه لا يستطيع أحدٌ أن يعرف إعجاز القرآن حتى يحسن تمييز أنواع النظم المختلفة ويحسن فهمها ، وهو يرى النظم قائماً على مراعاة التلاؤم بين معاني الكلمات المفردة تلاؤماً يساعد على أداء المعنى العام المقصود بجمالٍ وقوة ، ويتم نظم هذه المعاني نظماً متلائماً بالاستعانة بعلم النحو في معناه الواسع ، فنحن لا نقدّم ولا نؤخّر في الكلام ، أو نقوم بعملٍ فيه فنستعمل المعاني والقواعد النحوية إلا لتخدم المعنى وتحسن سبكه ، فتجيد التلاؤم بين المعاني والألفاظ ، فالنحو بمعناه الواسع إذْن خادمٌ لنظم المعاني وليس خادماً للألفاظ ، وقد قصر الإمام عبد القاهر كتابه (دلائل الإعجاز) على شرح هذه النظرية وعرضها والرد على مخالفيها ؛ ولعله إنما بالغ في نصرة المعاني لمبالغةِ غيره في نصرة الألفاظ ، **ومن هنا لا يمكن أن ننكر دور الإمام الجرجاني في أَنَّهُ مَرَّنَ الفكر في جعله الإعجاز في شيء غير محسوس تماماً ، لقد ناصر فكرة النظم القائم على تلاؤم المعاني في خدمة الغرض العام المقصود تلاؤماً يُراعى فيه التصوير وحسن التعبير والصياغة**[1] .

---

(١) فكرة إعجاز القرآن منذ البعثة النبوية إلى عصرنا الحاضر / نعيم =

عمل الإمام الجرجاني في رسالته الشافية في إعجاز القرآن الكريم :

ألفّ الإمام الجرجاني رسالته « الشافية في إعجاز القرآن الكريم » ، ليثبت فيها عجز العرب عن معارضة القرآن الكريم ، والقرآن الكريم مؤلّف من جنس كلام العرب ولغتهم ، وقد نزل بلسان عربي مبين ، إذن فمن الحتم أَنْ نقف على كلام العرب ، الذي تعلّق به القرآن الكريم ونزل به ، ووقع فيه التحدّي ، لنصل من وراء ذلك إلى سرّ إعجاز القرآن الكريم وروعة بيانه ونظمه ، وفي هذا يقرر أن العبرة بعجز العرب المعاصرين للرسول ﷺ دون المتأخرين من الخطباء والبلغاء ، وبناءً على هذا الأصل ينتقل الإمام عبد القاهر إلى النظر في دلائل أحوال العرب وأَقوالهم حين تُلي عليهم القرآن وتُحُدُّوا إليه ، **أَما الأحوال** فدلالتها من حيث كان المتعارف من عادات الناس ألا يسلموا لخصومهم فضيلة وهم يجدون سبيلاً إلى دفعها ، والإمام عبد القاهر يطيل في هذه النقطة مستشهداً بالمعروف من أحوال الشعراء يقول : وقد عرفت قصة جرير والفرزدق وكل شاعرين جمعهما عصر ، ثم عرض بينهما ما يهيج على المقاولة ، ويدعو إلى المفاخرة والمنافرة ، كيف جدّ كُلُّ واحد منهما في مغالبة الآخر ، وكيف جعل ذلك هَمَّهُ وَكَدَّهُ ، وقصر عليه دهره هذا

= الحمصي / الطبعة الثانية / ٨٩ .

وليس به ولا يخشى إلا أَنْ يُقْضَى لصاحبِهِ بأنَّه أَشْعَرُ منه ، وأن خاطره أحدُّ ، وقوافيه أشرد ، لا ينازعه ملكاً ولا يفتئت عليه بغلبته له حقاً ولا يلزمه به أَتاوة ولا يضرب عليه ضريبة . . وأَما الأقوال فكثيرة يروي منها الإمام عبد القاهر حديث ابن المغيرة ، وعتبة بن ربيعة ، وحديث أبي ذر رضي الله عنه ، وينتهي من هذا إلى القول بأنه على أساس دلالة الأحوال والأقوال وجب القطع بأن القرآن معجز ناقض للعادة ، وأَنّه على معنى قلب العصا حية ، وإحياء الموتى في ظهور الحجة على الخلق كافة ، ثم ينتقل إلى تفنيد بعض الشّبه والتي يثيرها بعض من سقمت أذواقهم ومرضت قلوبهم من أن العرب كانوا مأخوذين ببلاغة القرآن الكريم متوهمين لها ، وليست هي فيه ، وإنما هو لغلطٍ دخل عليهم ، ويرد الإمام هذه الشّبهة ويقول بأن هذا لا يعدو أن يكون سخفاً ، وكيف يمكن أن يدخل هذا الغلط على كافتهم وهم من إذا ذاق الكلام عرف قائله من قبل أن يذكر ، كما يردُّ الإمام الجرجاني زعم القائلين أَنّهُ يوجد في الزمان الفرد الذي لا ينازع ويذكرون في هذا امرأ القيس والشعراء الذين قُدِّمُوا على من كان معهم في أعصارهم ، وربما ذكروا بعض الناثرين والكتاب كالجاحِظ وكل مذكور بأنه كان أفضل من كان في عصره ولهم في هذا الباب خبطٌ وتخليطٌ لا إلى غاية ، وإنما هي نَـفْثَـةٌ نفثها الشيطانُ فيهم ، وقد رَدَّ عليهم في هذا أبلغ ردٍ ، وأثبت بما لا يدع مجالاً للشك ضعف هذا القول ، وأَنَّ شعرَ امرىء

القيس وشعر غيره من الشعراء بين أيدينا ، وأنّه ما من واحدٍ منهم إلا ودخله الخللُ في شعره ولم يسلم من كثير من النقدات . . وأن الأخبار تدل على خلافٍ لم يزل بين الناس فيه وفي غيره أَيٌّ أشعر ؟ وأنّه قد وجد في وقته من يباريه ويماتنه . . ثم يرد على شبهة من زعم أن عجز العرب لم يكن لأجل أَنهم لا يستطيعون أن يأتوا بمثل نظم القرآن ، ولكن العجز الذي ظهر فيهم لأنهم تُحُدُّوا بأَنْ يأتوا بنظم في مثل معاني القرآن الكريم ، ومعلوم أن معاني القرآن الكريم لم تكن ممكنة لديهم ، ولا يصح التحدي إلا بما يتصور وجوده . يقول في الرد عليهم : (واعلم أَنَّهُم في هذا كَرَامٍ قد أَضَّلَ الهَدَفَ ، وَبَانٍ زَالَ عَن القَاعِدَة ، وذلك أَنَّه سؤال لا يتجه حتى يقدر أنّ التحدي كان إلى أن يعبروا عن معاني القرآن الكريم أنفسها وبأعيانها بلفظ يشبه لفظه ، ونظم يوازي نظمه وهذا تقديرٌ باطل ، فإنّ التحدي كان إلى أن يجيئوا في أي معنى شاءوا من المعاني بنظم يبلغ نظم القرآن في الشرف أو يقرب منه يدل على ذلك قوله تعالى : ﴿ قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ ﴾ أي مثله في النظم ، وليكن المعنى مفترى لما قلتم فلا إلى المعنى دعيتم ولكن إلى النظم ، وإذا كان كذلك كانت شبهتكم على غير أساس .

ثم يناقش الإمام عبد القاهر الجرجاني في نهاية رسالته فكرة (الصِّرْفَة) ويفند رأي القائلين بها وينقض رأيهم بأنّه إذا كان الأمرُ كذلك فلماذا بهرهم القرآن إذن ، أوليست دهشتهم

لشيءٍ وجدوه فيه غريباً وفوق طاقتهم ؟

ويقرر أَنَّ القرآن الكريم معجزٌ في نفسه وأَنَّ إعجازه في نظمه وتأليفه على وصف لا يهتدي الخلق إلى الإتيان بكلام هو في نظمه وتأليفه على ذلك الوصف وهذا هو الإعجاز (بالنَّظْم) وظاهرٌ في نظام هذه الرسالة أَنَّ الإمام الجرجاني كتبها ليثبت حقيقة الإعجاز القرآني وهو نفس ما صنعه في وضعه لكتاب (دلائل الإعجاز) ومن ثم كان كتاب دلائل الإعجاز مقدمة لفهم الإعجاز وليس حديثاً من صميم الإعجاز نفسه إنّه شرح لأصول نظرية النظم ، ويجعل الإمام الجرجاني سر إعجاز القرآن مرتبطاً بمعرفة أَسرار النظم ودقائقه ، لقد أَثْبَتَ الإمام عبد القاهر أن المزيَّة والوصف الذي كان به الإعجاز هو الفصاحة والبلاغة والبيان وأَنَّ هذه المَزِيَّةَ ليست إلاّ حُسْنُ الدلالة وتمامها وتبهرجها في صورةٍ رائعةٍ من النظم أو هي أن يؤتى المعنى من الجهة التي هي أَصَحُّ لتأديته ، ويُخْتَارُ له اللفظ الذي هو أَخَصُّ به ، وأنَّه لا مزيّة للعبارة على الأخرى إلا بقوة دلالتها على الغرض المقصود ، وذلك راجعٌ إلى « النظم » . . .



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وجه الإعجاز عند الإمام عبد القاهر الجرجاني :

فيما يتعلق بوجه الإعجاز عند الإمام عبد القاهر الجرجاني ، فقد فصَّل القول فيه في كتابه « دلائل الإعجاز » فقال عنه : [إن الوجه الذي وقع به الإعجاز ، وتحدوا به العرب هو الإتيان بمثل نظم القرآن الكريم][1] .

فوجه الإعجاز عنده هو (النَّظْمُ) إذن ، وعرَّف النظم بقوله : [اعلم أنْ ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو ، وتعمل على قوانينه وأصوله وتعرف مناهجه التي نُهجت وتحفظ الرسوم التي رسمت لك ، فلا تُخِلَّ بشيء منها] « ونظريةُ النَّظْمِ » عند الإمام عبد القاهر من النظريات الكبرى ، وهذه النظرية لم تكن من اكتشافات الإمام عبد القاهر ، ولا من اختراعاته ، بل أمور قد سُبِقَ إليها عند البلاغيين السابقين إن صح التعبير ، بل إن بعضهم ألَّف في نظم القرآن كالجاحظ ، وإن كان الكتاب لم يُعثر عليه ، بل إن جزئيات هذه النظرية تجدها مبعثرة عند كثير من السابقين على الإمام عبد القاهر ، ولا نستبعد ولا نَبْعُد عن الصواب ، إذا

---

(١) دلائل الإعجاز / للإمام عبد القاهر / تحقيق محمود شاكر / ٨١ .

قلنا : إنَّ أَثر القاضي عبد الجبار في حديثه عن إعجاز القرآن كان له أكبر الأثر على الإمام عبد القاهر ، ولكن وضعه نظرية مكتملة ، ومفصلة ، ومشروحة على هذا الوجه ، ومدعومة بالأمثلة والشواهد ، وفيها الكثير من الرد على القادحين فيها والطاعنين لم يتيسر لأحد من قبل الإمام عبد القاهر ، فهو يرى أن إعجاز القرآن الكريم يعود إلى نظمه ، وتفصيل كلامه بوجه أوضح من خلال كتابه يقول : [إن العرب عندما تحداهم المولى عز وجل إلى أن يأتوا بمثل القرآن الكريم لم يتحداهم بالمفردات ، ولا إلى جرس الحروف ، ولا إلى مادة الكلمات ، فإن هذه أمور متعارف عليها عندهم ، بل ولا إلى اشتقاق المادة اللغوية والكلمات المفردة ، فإن هذه أمور متيسرة عندهم ، بل ولا إلى أن يأتوا بكلام خالٍ من الغرابة والتنافر الوحشي ، فإن هذه أمور لا تصعب عليهم بل في متناول أيديهم ، بل إنما تحداهم أن ينظموا تلك المفردات في كلام وفق ما يقتضيه العقل على وجه يقع به التحدي ، وحاديهم في ذلك ودليلهم « هو توخي معاني النحو بين الكلم »] .

نقول توخي معاني النحو ، وليس النحو إذ هناك فرق بين توخي الإعراب وبين توخي معاني الإعراب ، إذ توخي الإعراب يتأتى لكل متكلم بالعربية على وجه صحيح ، إذ يستطيع بمقتضى قواعدها أَنْ يضبط أواخر الكلمات ، وهذا غير مقصود فلم يتحداهم إلى الإعراب ، وإنما تحداهم إلى

معاني الإعراب أو معاني النحو وبصورة أوضح لم يتحداهم في كتابه العزيز ويقول لهم : إني قد أتيت بالفاعل مرفوعاً أو المفعول منصوباً لم يتحدَّهم بمثل ذلك ، وإنما تحداهم « بكلام » كأنَّه يقول فيه : مفردات هذا الكلام مما هو مستخدم عندكم ، وطريقة ضبطه كما تنطقونه وتضبطونه أنتم ، لكني قد أتيتكم بنظم فيما بين مفرداته ، وبتركيب وتنسيق بين مفرداته لا تستطيعون الإتيان بمثله ، وهذا النظم والتأليف والترتيب والتركيب ليس مجرد جمع ، لكن وفق ما يقتضيه العقل والنظر إلى حال المخاطب من الكلام ، مع مراعاة معاني النحو أي معنى الحال ، معنى الفاعل مثلاً ، معنى المفعول ، معنى التمييز ، معنى الجار والمجرور ، كيف توضع هذه المعاني في موضعها اللائق بها ، فلا تقديم ولا تأخير ، ولا تعريف ولا تنكير ، ولا وصل ولا فصل إلا وفق ما يقتضيه العقل مع مراعاة حال المخاطب ، فكأنّه يقول لهم : هذا كتابٌ بين أيديكم وقد أتاكم بلسانٍ عربي مبين ، إن استطعتم معارضة هذا القرآن بكامله ، فأتوني به أو بعشر سور من مثله ، بل إنني أتنازل معكم وأطلب معارضته بسورة من مثله وهذه السورة في حَدِّ سُوْرَةِ الكوثر ، فلم يتحدهم إلى مفردات ولا إلى بديع ، لم يتحدهم إلى أيِّ فنٍ بلاغي بديعي أَو بياني ، فلم يتحدهم إلى أن يأتوا باستعارة أو كناية أو جناس أو طباقٍ . . . بل تحداهم كما ذكرنا سابقاً إلى نظم في مستوى نظم القرآن الكريم فلم يستطيعوا إلى ذلك سبيلاً . .

والإمام عبد القاهر لا يمل من التكرار والإعادة والاستطراد بل والدفاع عن هذه النظرية التي أقام عليها كتابه (الدلائل) وهو بالفعل كتابُ (دلائل الإعجاز) وليس (ماهيةُ الإعجاز) وإنما يدل على الإعجاز ، وهذا لا يدل على أن القرآن الكريم ليس فيه وجوه أخرى للإعجاز ، بل هناك وجوه أخرى للإعجاز منها أَنَّهُ من أولِه إلى آخره لم يشتمل على كلمات غريبة أو وحشية ، بل كل كلماته في أعلى درجات الفصاحة والبيان ، وهذا لا يتأتى لأي بليغ شاعر أو ناثر مهما أوتي من فصاحة أو بلاغة أن يأتي كلامه خالياً من العيب وهذا وجه للإعجاز . . .



بسم الله الرحمن الرحيم

قال الشيخ عبد القاهر بن عبد الرحمٰن رضي الله عنه : الحمد لله رب العالمين حمد الشاكرين ، وصلواته على النبي محمد وآله أجمعين .

[اعلم أن لكل نوع من المعنى نوعاً من اللفظ هو به أخص وأولى ، وضروباً من العبارة هو بتأديته أقوم ، وهو فيه أجلى ، ومأخذاً إذا أخذ منه كان إلى الفهم أقرب ، وبالقبول أخلق ، وكان السمع له أوعى ، والنفس إليه أميل ؛ وإذا كان الشيء متعلقاً بغيره ، ومقيساً على ما سواه ، كان من خير ما يستعان به على تقريبه من الأفهام وتقريره في النفوس أن يوضع له مثال يكشف عن وجهه ويؤنس به ، ويكون زماماً عليه يمسكه على المتفهم له والطالب علمه] .

يريد أن يقول الإمام عبد القاهر الجرجاني رحمه الله : إنه سيتحدث عن إعجاز القرآن الكريم وأن الموضوع الذي سيخوض فيه بحرٌ لا ساحل له ، وأن عظمة الموضوع تفرض على المتحدث فيه أَنْ يكون دقيقاً ، وأنه سيأتي في أسلوبه بما يتناسب مع عظمة إعجاز القرآن الكريم ، وإذا كان الأمر كذلك ، فإنه لا بد من أن يكون اللفظ ملائماً للمعنى وأن

يعطى لكل لفظة معناها الأخص الأشكل بها في إفادة بيان مراد الخطاب ، ولذلك فإنه سيأتي بالأسلوب الأَنسب الذي يأنس به السامع والمتلقي ، الأسلوب الأقرب إلى الأفهام ، وليس فيه التعقيد ، ولا الفلسفة ، ولا المنطق ذلك هو أسلوب الإمام الجرجاني الذي سيجري عليه في بيان عظمة كتاب الله وإظهار إعجازه وهذا معنى قوله : « اعلم أن لكل نوع من المعنى نوعاً من اللفظ هو به أخص وأولى وضروباً من العبارة هو بتأديته أقوم وأوضح ، وهو فيه أجلى وأفصح ومأخذاً إذا أُخذ منه كان إلى الفهم أقرب ، وبالقبول أخلق وأجدر ، وكان السمع له أوعى ، والنفس إليه أميل » .

إذن فمادام الحديث عن القرآن الكريم ، والحديث عن القرآن الكريم يتطرق إلى الحديث عن إعجازه ، فالأمر يتطلب أسلوباً من نوعٍ آخر ، أسلوباً يتفق مع عظمة كتاب الله وروعة تبيانه ، وسر إعجازه ، أسلوباً يتناغمُ مع هذا البيان المعجز ، هذا الأسلوب هو إلى الفهم أقرب ، وبالقبول أحرى وأخلق ، تهفو إليه النفوس وتميل ، وتستشرف له الأسماع وتستوعب .

ثم يقول الإمام الجرجاني رحمه الله : [**وإذا كان الشيء متعلقاً بغيره ، ومقيساً على ما سواه ، كان من خير ما يُستعان به على تقريبه من الأفهام وتقريره في النفوس أن يوضع له مثال يكشف عن وجهه ويؤنس به ، ويكون زماماً عليه يمسكه على المتفهم له والطالب علمه**] .

ويقصد الجرجاني بقوله : « وإذا كان الشيء متعلقاً بغيره »

كتاب الله عز وجل فمادام الحديث عن القرآن الكريم ، والقرآن مؤلف من جنس كلام العرب ولغتهم وقد نزل بلسان عربي مبين ، إذن فمن الحتم أن نقف على كلام العرب ، الذي تعلق به القرآن ونزل به ، ووقع فيه التحدي ، لنصل من وراء ذلك إلى سر إعجاز القرآن وروعة بيانه ونظمه ، وخير ما يستعان به في تقريبه من الأفهام ، وتقريره من النفوس ، أن توضع له القواعد والقوانين المنظمة ، وهذه القواعد والقوانين بمثابة الإشارات والدلائل يُستعان بها للوقوف على مناط إعجاز القرآن الكريم ، فمادام أن القرآن الكريم نزل بلغة العرب ، فعلينا أن نستعرض لغة العرب ، لنقف على أسرارها والأسباب التي أدت إلى ارتقائها ، بعد ذلك يتبين لنا وجه إعجاز القرآن ، بالوقوف على الخصائص والدلائل التي سمت بلغة العرب وجعلتها ترتقي إلى هذا المرتقى لغة العرب فيها الفصاحة والبيان ، البيان والبلاغة تجلت في التقديم والتأخير ، في القصر والوصل ، في الحذف والوصل ، في استعارته في كناياته ، في روعة تشبيهاته تلك هي السمات والدلائل هي العلامات الهادية ، والدلائل التي ترشد إلى إعجاز القرآن حيث أنه قد أعجز العرب الذين تميزت لغتهم بكل هذا وقد جاء في أعلى درجات البيان فلتكن هذه الأمثلة خير ما يكشف لك عن وجه الإعجاز في القرآن ولتستأنس بها في الوصول إلى أسرار بلاغته ودلائل إعجازه ، ولتكن بمثابة المقود الذي تضعه في يديك تمسك به لتفهم سر بلاغته

ودلائل إعجازه ، فالإمام عبد القاهر لا يحدد لك الإعجاز ، ولكن يقول لك : للإعجاز طرقٌ شتى ، وأنواع مختلفة ، أنا سأعطيك الأدلة والبراهين والدلائل والمصابيح تستهدي بها لتصل إلى غايتك عن طريق التطبيق والبحث والتقصي ، فلتكن هذه الإشارات شقاً للطريق وبذرةً في سبيل الحق المنشود ، تصل إليها وتقف على سر إعجاز القرآن المتمثل في صورٍ شتى أهمها « النظم » عن طريق تطبيق هذه القواعد وتمثل هذه الدلائل والوقوف على هذه الإشارات ، تلك هي العلامات الهادية ، والمعالم على الطريق .

ثم يقول الإمام عبد القاهر : [**وهذه جملٌ من القول في بيان عجز العرب حين تحدوا إلى معارضة القرآن وإذعانهم وعلمهم أن الذي سمعوه فائت للقوى البشرية ، ومتجاوز للذي يتسع له ذرع المخلوقين ، وفيما يتصل بذلك مما له اختصاص بعلم أحوال الشعراء والبلغاء ومراتبهم ، وبعلم الأدب جملة ، قد تحريت فيها الإيضاح والتبيين ، وحذوت الكلام حذواً هو بعرف علماء العربية أشبه ، وفي طريقهم أذهب ، وإلى الأفهام جملة أقرب ؛ وأسأل الله التوفيق للصواب والعون عليه ، والإرشاد إلى كل ما يزلف لديه ، إنه على ما يشاء قدير**] .

يقول الإمام عبد القاهر : وسوف أسوق إليك جملاً من القول ونبذاً من البيان تُظْهِرُ عجزَ العرب وانقطاعهم أمام تحدي القرآن ، وأنَّهم لايزالون كاعين ، ناكصين على أعقابهم

أمام عظمة إعجاز بيان القرآن ، وعلموا أن الذي سمعوه من القرآن فوق طاقة البشر ، ولا تبلغه قُدَرُهُم فانقطعوا دونه ، وأذعنوا له ، وسلموا القياد مبهورين ، مشدوهين ، أمام بيانه ، وهم يجدون له وقعاً في النفوس ، وقرعاً في القلوب يريبهم ويحيرهم ، وهم يعلمون تمام العلم ، ويدركون بأن القرآن فائت للقوى البشرية ، ومتجاوز للذي يتسع له ذرع المخلوقين ، يقول الجرجاني رحمه الله : [**هذه الجملُ التي سوف أسوقها لأُدَلِّلَ بها على عجز العرب عن معارضة القرآن ، وأوضح بها سر إعجازه ، قد استقيتها مما له اختصاص بعلم أَحوال الشعراء والبلغاء ومراتبهم وبعلم الأَدب جملة ، وأنا أَسير في ذلك على طريقة علماء العربية دائمة الأدب ، الذين يتميزون بصفاء القريحة ، وصدق الحدس ، وسلامة اللغة ، وعفوية الخاطر والسليقة ، من أمثال الجاحظ ، والأَصمعي ، وأبي عمرو بن العلاء ، والفراء ، والمبرد وغيرهم ممن سمت أذواقهم وتخلصوا من عنجهية الأعراب والأجلاف من جفاة العرب ، فامتازت لغتهم بالفخامة والعذوبة وكتاباتهم بالجزالة في مقام الجزالة والرقة في مقام الرقة فكانت لغتهم سلسة عذبة ، صفت قرائحهم ، وتبحروا كلام العرب وعرفوا أساليبه الواسعة ، ووقفوا على مذاهبه القديمة ، ممن يحتج بأقوالهم ، من الفصحاء في صناعة الشعر وَنَجْرِهِ ، ومعرفة الكلام على سَنَخِهِ الأول وطبعه ، وابتعدت عن كلام الفلاسفة ، والمناطقة**] وهذا معنى قول

الجرجاني : [وفيما يتصل بذلك مما له اختصاص بعلم أحوال الشعراء والبلغاء ومراتبهم ، وبعلم الأدب جملة ، قد تحريت فيها الإيضاح والتبيين] يريد أن يقول بأَنَّ ما أورده من كلام يخلو من التعقيد والإسفاف وكلام الفلاسفة والمنطقيين وإنما هو على ما درج عليه أئمة اللغة وأصحاب البلاغة والأدب للوقوف على سر إعجاز القرآن ومعرفة فصاحته ونظمه ، وحذوت الكلام حذواً هو بعرف علماء العربية أشبه ، وفي طريقهم أذهب ، وإلى الأفهام جملة أقرب ، فكلامي على غرار كلام علماء العربية وأسلوبي في الجزالة والفخامة والعذوبة أشبه بأسلوبهم أي علماء الأدب وأئمة اللغة ، فهو لا يتعسر ولا يستغلق بل هو إلى جملة الأفهام أقرب ، تلك توطئة وذلك تمهيد يسوقه الإمام الجرجاني بين يدي حديثه عن إعجاز القرآن ، وأسرار بلاغته ودلائل إعجازه ، يقول بعد هذا التقديم : [**وأسأل الله التوفيق للصواب والعون عليه ، والإرشاد إلى كل ما يزلف لديه ، إنه على ما يشاء قدير . .**].

ثم يقول الإمام الجرجاني رحمه الله : [**معلوم أن سبيل الكلام سبيل ما يدخله التفاضل وأن للتفاضل فيه غايات ينأى بعضها عن بعض ، ومنازل يعلو بعضها بعضاً ، وأن علم ذلك علم يخص أهله ، وأن الأصل والقدوة فيه العرب ، ومن عداهم تبع لهم وقاصر فيه عنهم ، وأنه لا يجوز أن يُدَّعَى للمُتأخرين من الخطباء والبلغاء عن زمان ـ النبي ﷺ ـ الذي**

نزل فيه الوحي ، وكان فيه التحدي ، أنهم زادوا على أولئك الأولين ، أو كَمُلُوا من علم البلاغة أو تعاطيها لما لم يَكْمُلُوا له . كيف ونحن نراهم يُجَهِّلُون عنهم أنفسهم ، ويبرؤن من دعوى المداناة معهم ، فضلاً عن الزيادة عليهم ، هذا خالد بن صفوان يقول : كيف نجاريهم وإنما نحكيهم ، أم كيف نسابقهم وإنما نجري على ما سبق إلينا من أعراقهم ؟] .

يريد أنْ يقول الإمام الجرجاني رحمه الله إنَّ الكلام من المجالات التي يقع فيها التنافس ، والأخذُ والرد ، والجذبُ والشد ، وللتفاضل فيه غايات يبعدُ بَعْضُهَا عن بعض ، فقد يكون مجال الجودة قائماً على التحدي ، وقد يكون لإظهار الاقتدار ، وقد يكون لإكساب المعاني حُلَلاً من السحر تشدُّ السامع وتجذب القارىء ، وقد يكون للتنافر ، كما يكون للتفاخر[١] فمجالات القول تتسع لكل هذا وذاك ، وكلما كانت المسافةُ بعيدةً في الجودة ، كلما تفاضل الكلام أكثر فأكثر ، ومن منازل الكلام التي يعلو بعضها ، فيرتقي شأواً بعيداً عن أي كلام آخر ، بلاغة القرآن وفصاحته التي تناهت

---

(١) التفاخر : المفاخرة : مصدر فاخر وهي تفاخر القوم بعضهم على بعض وكانوا يفاخرون بالحسب والشرف والأخلاق الكريمة والعز والثروة والكثرة والعدد . .
التنافر : والمنافرة المحاكمة في المفاخرة وأصلها من قولهم(أيُّنا أَعَزُّ نفراً) فهي التحاكم إلى الأشراف من حكام العرب ليفصلوا بينهما ويقضوا بالشرف لأحدهما . .

في الرقي ، فأعجزت العرب الذين هذا شأنهم ، أصحاب الفصاحة واللسن ، حتى خروا ساجدين مبهورين أمام فصاحته ، وحتى أخذ من شُعَبِ الكلام أعلاها ، فامتزج له بذلك أسلوب يجمع بين الفخامة والجزالة والعذوبة ، هذا التمييز بين مظاهر الجودة والفخامة ، ومعرفة صحيح الكلام من سقيمه ، إنما يدركه أهله ، وهم العرب لأنهم الأصل والقدوة فيه ، هم المثال الذي يحتذى في هذا الجانب ، وهم الذين عليهم المُعوَّل في معرفة الصحيح من السقيم ، والجيد من الرديء من القول ، ومن عداهم إنما يُعَدُّ تَبَعاً لهم ، فهم الأصل ، ومن عداهم تابعٌ يقصر بهِ عزمه عن مجاراتهم وإنما هو يغترف من بحرهم ، من هنا فلا يجوز أن يدعى مدعٍ للمتأخرين من الخطباء والبلغاءعن زمان النبي ﷺ ، والذين جاءوا من بعده بقرنين أو أكثر بأنهم وقد كملت لهم العلوم ، واجتمع لديهم من أساليب الفصاحة والفنون ما لم يجتمع للعرب الذين كانوا في عصر النبي ﷺ فزادوا عليهم أنَّ بإمكانهم معارضة القرآن والإتيان بمثله ، وأنهم أقدر على المقارعة والمصاولة ، نقول: كيف يتأتى ذلك ، وهم إنما جاءوا في العصور المتأخرة بعد فسادِ الأذواق وتسرب العجمة إلى الألسنة ، كيف يمكن أن يَصْدُق عليهم مثلُ ذلك ، بل إنهم قد أنصفوا من أنفسهم فهم يُجَهِّلُونَ أنفسهم ، يعتبرون أنفسهم جهلةً بالنسبة لأولئك ويبرؤن من دعوى المداناة ، يتبرءون من مقاربتهم ، وأنهم لا يستطيعون ذلك ، فضلاً عن

الزيادة عليهم ، هذا خالد بن صفوان وهو إمام من أئمة اللغة يقول : كيف نجاريهم ، وإنما نحكيهم ، أم كيف نسابقهم وإما نجري على ما سبق إلينا من أعراقهم ؟ أي كيف يمكن أن نطرد معهم في ميدانٍ واحد كفرسي رهان ، وإنما نحكيهم فنتمثلهم ونقتدي بهم ونحذو حذوهم ، أم كيف نسابقهم في المضمار ، وكيف يمكن أن ندرك الشوط ، ونحن إنما نجري على ما سبق إلينا من أعراقهم ، أي من فنون قولهم نظمهم ونثرهم وما وصل إلينا من كلامهم وروح بلاغتهم وبيانهم ، كيف يتأتى لنا مثل ذلك وأولئك الذين عاصروا القرآن وشافهوا الرسالة ، وعايشوا القرآن غضاً كما أنزل ، كيف يمكن أَنْ يتسرب إلى نفوسنا أو يخالجها شكٌّ في أَنَّنا يمكن أَنْ نجاريهم في الشوط ، أو ندانيهم في المضمار ، وهم الأصلُ والقدوة أصحابُ الفصاحةِ واللسن ، والذين يعرفون تمييز الجيد من الرديء من القول ، وهم الأصلُ والقدوة فيه ، فإذا كان أولئك القوم قد وقفوا حائرين مشدوهين أمام فصاحة القرآن وإعجازه فمن باب أولى غيرهم وكفى بهذا حجراً يلقمه خالد بن صفوان لمن يدعي مثل هذه الدعوى ، ويقيم مثل هذا الاعتراض وأَنَّ من جاء بعدهم ، وقد اكتملت له الآلة وتعاطى علوم البلاغة وفنونها ، فهو أقدر على مجاراة القرآن ومعارضته ، فإذا كان أصحاب البيان وأهله عجزوا عن مجاراته فغيرهم في العجز من باب أولى . .

يقول الإمام الجرجاني رحمه الله : [**ونرى الجاحظ يدعي**

للعرب الفضل على الأمم كلها في الخطابة والبلاغة ، ويناظر في ذلك الشعوبية ، ويجهلهم ويسفه أحلامهم في إنكارهم ذلك ، ويقضي عليهم بالشقوة وبالتهالك في العصبية ، ويطيل ويطنب ، ثم يقول : « ونحن أبقاك الله إذا ادعينا للعرب الفضل على الأمم كلها في أصناف البلاغة ، من القصيد والأرجاز ، ومن المنثور والأسجاع ، ومن المزدوج وما لا يزدوج ، فمعنا على أن ذلك لهم شاهد صادق من الديباجة الكريمة ، والرونق العجيب ، والسبك والنحت ، الذي لا يستطيع أشعر الناس اليوم ولا أرفعهم في البيان أن يقول مثل ذلك إلا في اليسير والشيء القليل » انتهى كلامه] .

هنا نجد الإمام عبد القاهر الجرجاني يسير على نفس النهج الذي رسمه لنفسه والعهد الذي قطعه على نفسه ، لقد أشار في بداية حديثه في رسالته الشافية في إعجاز القرآن الكريم عن أسلوبه الذي سوف يسير عليه في معالجة إعجاز القرآن الكريم فذكر في ذلك أنه سيحذو حذو علماء العربية وأئمة اللغة الذين مارسوا البيان وعرفوا مداخل الكلام وأفانينه ووقفوا على أسرار الفصاحة وسبروا روح البيان ، وهم المشهود لهم في هذا الباب الذين يعرفون الكلام ، وهم رجاله ونقدته وصيارفته كالجاحظ والأصمعي وأبي عمرو بن العلاء والفراء والمبرد والأخفش وسيبويه وغيرهم ممن رقت أساليبهم وفخمت ، فهم يعرفون للفخامة والجزالة مقاماتها ، والرقة والعذوبة مقاماتها ، فسمت أساليبهم وعذب بيانهم ،

وأصبح ذلك سجية لهم وكالفطرة المغروسة في نفوسهم ، وهذا معنى قول الجرجاني :

[قد تحريت فيها الإيضاح والتبيين ، وحذوت الكلام حذواً هو بعرف علماء العربية أشبه وفي طريقهم أذهب ، وإلى الأفهام جملة أقرب](١) .

هذا العهد الذي قطعه الجرجاني على نفسه نراه قد التزم به ، وهو يسوق بمثابة التمهيد والتوطئة لكلامه حديث خالد بن صفوان ، ثم من بعده كلام الجاحظ وهو إمامٌ من أئمة اللغة ، وصاحب مدرسة في البيان عُرِفَ بها وهي مدرسة « الاستطراد »(٢)

---

(١) الرسالة الشافية للإمام الجرجاني من ثلاث رسائل في إعجاز القرآن للخطابي والرماني والجرجاني دار المعارف بمصر/ (١٠٧) .

(٢) يمتاز الجاحظ بأنه لم يترك موضوعاً إلا وكتب فيه رسالة أو كتاباً ، كتب في النبات والحيوان والإنسان والجد والهزل ، والترك والسودان والمعلمين والقيان والجواري والغلمان والعشق والنساء وكانت لكتاباته صبغة خاصة فهي كتابة ذات موضوع قبل أن تكون ذات أسلوب ، وليس معنى هذا أنه كان يهمل ألفاظه وتراكيبه ، بل لقد كان يُعنى بهما عناية شديدة ، ويقول (لربما خرج الكتاب من تحت يدي مُحَصَّفاً كأنه مَتْنُ حَجَرٍ أمْلس بمعان لطيفة محكمة ، وألفاظ شريفة فصيحة) .
وأعني بالاستطراد في مدرسته ، أنه كان دائم التنقل في كتاباته فهو يتنقل من باب إلى باب من خبر إلى شعر إلى فلسفة إلى جد إلى هزل ، وهو يرى في هذا أنَّه ترويح عن النفس ودعوةٌ إلى =

وهي مدرسة غير منكورة في أدبنا وتراثنا العربي .

فإذا كان الجاحظ وهو إمام من أئمة اللغة ، يقول هذا

= الاستجمام ، وبعث النشاط في النفس . . .
والشعوبية : الذين يصغرون شأن العرب ، ولا يرون لهم فضلاً على غيرهم . .

تهذيب اللغة / للأزهري ج ١

يقول الجاحظ : « فتفَّهم عني ـ فَهَّمكَ اللهُ ـ ما أنا قائلٌ في هذا ، واعلَمْ أنك لم تَر قوماً قطُّ ، أشقى من هؤلاء الشُّعوبيَّةِ ، ولا أعدى على دينه ، ولا أشد استهلاكاً لِعِرْضِه ، ولا أطولَ نَصَباً ، ولا أَقَلَّ غُنْماً من أهلِ هذه النِّحْلةِ ، وقد شفى الصُّدورَ منهم طولُ جُثُومِ الحَسَدِ على أكبادِهم ، وتوقد نَار الشَّنآنِ في قلوبهم ، وغليانَ تلك المراجل الفائرة ، وتَسعر تلك النِّيران المضطرمة ، ولو عرفوا أخلاق كُلِّ ملة ، وزِيَّ أهل كل لغة وعلِلِهم على اختلاف شاراتهم وآلاتهم وشمائلهم وهيآتهم ، وما علة كلِّ شيء من ذلك ، ولم اجْتلبوه ولم تكلَّفوه ؛ لأراحوا أنفسَهم ، ولخفت مؤنتهم على مَنْ خَالطهم » .

البيان والتبيين/ للجاحظ/ الجزء الثالث (٢٨) .

والجاحظ كما نرى في كلامه هذا يُزري على أصحاب هذه النحلة ، تحاملهم على العرب ويصف هذا بأنه دليل على شقوتهم ، وتأجج نار الحسد في قلوبهم ، ولو أنهم عرفوا مذاهب الأمم في أخلاقهم ، وفي شمائلهم ، وفي لغاتهم وضروب كلامهم لا تضح لهم كم شقوا في عداوتهم للعرب ، ولهم تعود كافة المحامد ، وهم المبرؤون من كل نقيصة ، والمجبولون على كل فضيلة ، ولأراحوا أنفسهم واستراحوا . .

الكلام ، ويرى للعرب الفضل على بقية الأمم في البلاغة والخطابة ، فإن قوله هذا شهادة ممن خَبَرَ ضروب الكلام وعرف أفانين القول ، وهو لم يصدر حكمه هذا إلا بعد أن وقف على تقدم العرب وضربهم بسهمٍ وافرٍ في هذا الباب ، وهو يناظر في ذلك الشعوبية ، ويجهلهم ، ويسفه أحلامهم في إنكارهم ذلك ، وكأنه يرى بأَنَّهُ من باب التعصب الذميم ، وإنكار الحق ، وعدم الاعتراف بالفضل لأهله . تلك المماحكة وذلك الإنكار والتحامل البغيض ، ويشفع الجاحظ دعواه هذه بقوله : « ونحن أبقاك الله إذا ادعينا للعرب الفضل على الأمم كلها من أصناف البلاغة ، من القصيد والأرجاز ، ومن المنثور والأسجاع ومن المزدوج وما لا يزدوج ، فمعنا على أن ذلك لهم شاهد صادق ، من الديباجة الكريمة والرونق العجيب ، والسبك والنحت الذي لا يستطيع أشعر الناس اليوم ، ولا أرفعهم في البيان أن يقول مثل ذلك إلاَّ في اليسير والشيء القليل »[١] .

ومعنى قول الجاحظ هذا هو أنَّ العرب قد بلغوا الغاية في ميدان البلاغة والبيان وأنهم قد فاقوا الأمم جميعاً في هذا الباب ، وهو يقول بعد ذلك : « وكلُّ شيء للعرب فإنما هو بديهةٌ وارتجال ، وكأنه إلهام ، وليست هناك مُعاناةٌ ،

---

(١) البيان والتبيين / للجاحظ / تحقيق السندوبي / الجزء الثالث / دار الفكر بيروت / (٢٧) .

ولا مكابدة ولا إجالةُ فكرٍ ولا استعانة ، وإنما هو أن يَصرِفَ وَهْمَهُ إلى الكلام وإلى رَجْزِ يوم الخصام ، أو حين أَنْ يَمتَحَ على رأس بئر ، أو يحدو بعير أو عند المقارعة أو المناقلة ، أو عند صراعٍ أو في حرب ، فما هو إلا أن يَصرف وهمَه إلى جملة المذهب ، وإلى العمود الذي إليه يقصد ، فتأتيه المعاني أرسالاً . وتنثال عليه الألفاظ انثيالاً ، ثم لا يُقيّده على نفسه ، ولا يدرسه أحداً من ولده ، وكانوا أُمِّيين لا يكتبون ، ومطبوعين لا يتكلفون ، وكان الكلامُ الجيدُ عندهم أظهر وأكثر ، وهم عليه أقدر ، وله أقهر ، وكلُّ واحدٍ في نفسه أنطق ، ومكانهُ من البيان أرفعَ ، وخطباؤهم أوجز ، والكلام عليهم أسهل وهو عليهم أيسر من أن يفتقروا إلى تَحَفُّظٍ ، أو يحتاجوا إلى تَدَارُسٍ . . . »[١] بهذا الكلام من الجاحظ شيخ العربية نقول ونحن مطمئنون بأن العرب قد كانت من أفصح الأمم بياناً ، وأبعدها عن التكلف ، وكانوا مطبوعين لا يتكلفون ، وأنَّ غيرهم من الأمم كالفرس فإن كلامهم إنما هو عن طول فكرة ، وعن اجتهادٍ وخلوة وعن مشاورة ومعاونة ، وعن طول التفكر ودراسة الكتب ، حتى اجتمعت ثمار تلك الفكر عند آخرهم .

إذا ثبت هذا وأَنَّ العرب قد بَزَّت الأممَ في هذه الصناعة ،

---

(١) البيان والتبيين / للجاحظ / تحقيق السندوبي / الجزء الثالث / دار الفكر بيروت (٢٦/ ٢٧) .

يمتح : يستقي ، أرسالاً : يتلو بعضها بعضاً .

وأنهم أصحابُ السبق والفضل في البلاغة والفصاحة ، سواء في الشعر قصيده ، ورجزه ، أو في النثر سجعه ، وفواصله . .

فهذا يعني أن ذلك لهم شاهد صادق ، من الديباجة الكريمة ، والرونق العجيب والسبك والنحت : أما السبك فهو الصياغة من سَبَكَ اللفظ على المعنى فأجاد وأتقن ، وأما النحت فهو استخراج المعاني الدقيقة اللطيفة ، والوقوع على الصور المبتكرة ومن خير ما يستشهد به في هذا المقام قول عنترة العبسي في وصفِ روضٍ غِبَّ المطر :

وغـدا الـذبـاب بهـا فليـس ببـارح
غـرداً كفعـل الشـارب المتـرنـم
هـزجـاً يحـك ذراعـه بـذراعـه
فعـل المكبِّ على الـزنـاد الأجـذم

صورة رائعة في تصوير الذباب وهو يَطِنُّ ويترنم في ذلك الروض وقد أحدث ذلك الصوت الذي لا يشبهه إلا الأجذمُ الذي تآكلت يداه فلم يبق إلا شيء من أطرافه وقد أكب على الزناد ليقدحه . هذه الصورة لا يشبهها سوى الذباب وقوائمه القصيرة والأجذم بعد أَنْ تآكلت آطرافه فلم يبق إلا الذراعُ بعد الكوع وقد ذهب الساعدُ هو ذلك الذبابُ يَطِنُّ وهو ذلك الأجذمُ يقدح صُوْرَةٌ رائعة ومبتكرة ، وكانوا أقدر على التصوير والنحت ، وهم في كل ذلك يصدرون عن طبع ، ومن غير تكلف ، والذي لا يستطيع أشعر الناس اليوم ولا أرفعهم في البيان أن يقول مثلَ ذلك إلا في اليسير والنذر القليل ، هذا

الكلام من الجاحظ وهو في القرن الثاني الهجري ؛ هذا الكلام ساقه الإمام الجرجاني كتوطئه وتمهيد لحديثه عن إعجاز القرآن وعن عجز العرب عن مجاراته ، وعن معارضته يقول : [**والأمر في ذلك أظهر من أنْ يخفى ، أو أن ينكره إلا جاهلٌ أو معاند ، وإذْا ثبت أنهم الأصل والقدوة ، فإنْ علمهم العلم ، فَبِنَا أن ننظر في دلائل أحوالهم وأقوالهم حينَ تُلِيَ عليهم القرآنُ وَتُحُدُّوا إليه ، وَمُلِئَتْ مَسَامِعُهُمْ من المطالبة بأن يأتوا بمثله ، ومن التقريع بالعجز عنه ، وَبُتَّ الحكمُ بأنهم لا يستطيعونه ولا يقدرون عليه ، وإذا نظرنا وجدناها تفصح بأنهم لم يَشُكُّوا في عجزهم عن معارضته والإتيان بمثله ، ولم تحدثهم أنفسهم بأن لهم إلى ذلك سبيلاً على وجهٍ من الوجوه**][1] .

يقول الإمام الجرجاني رحمه الله : والأمر في ذلك أظهر من أن يخفى أي : الأمر في انقطاعهم وعجزهم في غاية الظهور ، وليس فيه خفاء ، وقد ثبت انقطاعهم بدلائل الأقوال والأفعال ، وإذا ثبت أَنهم الأَصل والقدوة ، لأن القرآن الكريم نزل بلسانهم ، وهم العرب الأقحاح ومن عداهم عالة عليهم في هذا الباب ، وفي ميدان الفصاحة ، وفي أودية الكلام ، فإن علمهم العلم ، فهم الذين خبروا الكلام ، وعرفوا طرقه ومداخله ومخارجه ، وأَفانينه وضربوا فيه بكل سهم ، وعرفوا

---

(١) الشافية / للجرجاني / (١١٨) .

ضروبه رجزه وقصيده وسجعه وسائر فنونه فمادام أَنَّ القرآن الكريم نزل بلغتهم وأَنهم الأصل والقدوة ، وأَنَّ علمهم العلم ، فهيا بِنَا ننظر في دلائل أَحوالهم وأَقوالهم حين تُلِيَ عليهم القرآن وتحدوا إليه ، فأما دلائل الأَقوال فهي تقطع بعجزهم وتظل قائمة شاهدة بقصورهم عن مجاراته أو مُداناته ولا أَدَلَّ على ذلك من قول بعض مردتهم وشياطينهم وهو الوليد بن المغيرة : « إنَّ له لحلاوة ، وإنَّ عليه لطلاوة ، وإنَّ أعلاه لمثمر ، وإنَّ أسفله لمغدق ، وإنَّه ليعلو ولا يعلى عليه ، وإنَّه ليحطم ما تحته » .

وأما دلائل الأحوال فهي تشهدُ بانقطاعهم ، وَتُفْصِحُ عن عجزهم ، فقد نابذوه وناصبوه الحرب ، فهلكت فيه النفوس ، وأُريقت المهج ، وقُطعت الأرحام وذهبت الأموال والقرآن يتحداهم وهم كاعّون ، والتحدي كان بطريقة استفزازية ، ﴿ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ ﴾ أنا أتحداكم وأنتم عاجزون ، وأنا أُرْسِلْتُ رسولاً وجئتكم بالقرآن وهو الحق فهاتوا مثله ، وقد تضمنت أَحكامه استباحة دمائكم وأموالكم ، وسبي ذراريكم ، فإن كنتم تقدرون على تكذيبه وتخليص أَنفسكم فافعلوا ، هو من جنس كلامكم ومن مألوف خطابكم ، والتحدي لايزال قائماً ، كل هذا يشهد بعجزهم وانقطاعهم والأمر أظهر من أن يخفى ، أو أن ينكره إلا جاهلٌ أو معاند .

هذا وقد مُلِئَتْ مسامعهم من المطالبة بأن يأتوا بمثله ،

ومن التقريع بالعجز عنه وكما قلت فإن التقريع والمطالبة كانت بأسلوب استفزازي غاية في التحدي وهم أصحاب الذَّرابة ، والسلاقة ، والمعرفة بوجوه الفصاحة ، وهو يستطيل عليهم بأَنهم عاجزون عن مباراته ، وأَنهم يضعفون عن مجاراته ، ويقرعهم ويؤنبهم وهم أَصحاب الهمم الكبيرة ، والحميَّة حميَّة الجاهلية ، فكيف يجوز أن لا يَتَوَصَّلُوا إلى الرد عليه ، وإلى تكذيبه بأَهون سعيهم ومألوف أَمرهم ، وما يمكن تناولُه من غير أن يعرق فيه جبين ، أو ينقطع دونه وَتِينُ ، أو يشتمل به خاطر ، وهو لسانهم الذي يتخاطبون به ، مع بلوغهم في الفصاحة النهاية ، التي ليس وراءَها مُتطلع ، والرتبة التي ليس فوقها مَنْزَع »[1] ؟!.

وَبُتَّ الحُكْمُ بأنهم لا يستطيعونه ولا يقدرون عليه ، بعد ذلك فقد قطع الحكمُ وَبُتَّ بأَنَّ قريشاً عجزت عن مجاراة القرآن ومعارضته ، وهذا حُكْمٌ قَاطِعٌ ، وقول فصل لا يحتمل عداه ، « فلما لم يفعلوا شيئاً من ذلك مع طول المدة ، ووقوع الفسحة ، وكان أمره يتزايد حالاً فحالاً ، ويعلو شيئاً فشيئاً وهم على العجز عن القدح في آيته والطعن في دلالته ، عُلِمَ مما بَيَّنَّا أَنَّهُمْ كانوا لا يقدرون على معارضته ، ولا على توهين حجته »[2] .

---

(١) انظر إعجاز القرآن للباقلاني / تحقيق السيد أحمد صقر / الطبعة الثالثة / (٢١) .

(٢) نفس المرجع (٢١) .

يقول الإمام الجرجاني رحمه الله : [وإذا نظرنا وجدناها تفصح بأنهم لم يشكوا في عجزهم عن معارضته والإتيان بمثله ، ولم تحدثهم أنفسهم بأن لهم إلى ذلك سبيلاً على وجه من الوجوه ، أما الأحوال فدلت من حيث كان المتعارف من عادات الناس التي لا تختلف ، وطبائعهم التي لا تتبدل أن لا يسلموا لخصومهم الفضيلة ، وهم يجدون سبيلاً إلى دفعها ، ولا ينتحلون العجز وهم يستطيعون قهرهم والظهور عليهم ، كيف وأن الشاعر أو الخطيب أو الكاتب يبلغه أن بأقصى الإقليم الذي هو فيه من يبأى بنفسه ، ويدل بشعر يقوله أو خطبة يقوم بها أو رسالة يعملها ، فيدخله من الأنفة والحمية ما يدعوه إلى معارضته ، وإلى أن يظهر ما عنده من الفضل ، ويبذل ما لديه من المنة حتى إنه ليتوصل إلى أن يكتب إليه ، وأن يعرض كلامه عليه ببعض العلل وبنوع من التمحل ، هذا وهو لم ير ذلك الإنسان قط ، ولم يكن منه ما يهز ويحرك ويهيج على تلك المعارضة ، ويدعو إلى ذلك التعرض][1] .

يريد أَنْ يقول الإمام الجرجاني رحمه الله : وإذا نظرنا في دلائل أحوالهم وأقوالهم وجدناها تفصح بأنهم لم يشكوا في عجزهم عن معارضته والإتيان بمثله ، فهم متيقنون العجز ،

---

(١) الرسالة الشافية في إعجاز القرآن الكريم / للإمام عبد القاهر الجرجاني / (ص ١٠٨ ـ ١٠٩) .

ولا يكادون يشكون في ذلك ، كما كانوا متحيرين في أمرهم ، متعجبين من عجزهم ، يحاولون أن يختلقوا المعاذير ولكن هيهات ، وكانوا يعلمون بأن عجزهم عن قدرة ، وليس عن فقد الآلة ، ولم تحدثهم أنفسهم بأن لهم إلى ذلك سبيلاً على وجه من الوجوه ، فلم نرهم احتجوا عليه بكلام سابق وخطبة متقدمة ، ورسالة سالفة ، ونظم بديع ، ولا عارضوه به فقالوا : هذا أفصحُ مما جئت به وأغرب منه أو هو مثله عُلِمَ أنه لم يكن إلى ذلك سبيل وأنه لم يوجد له نظير ، وأن القوم لم تحدثهم أنفسهم بمعارضته أو مجاراته . أما الأحوال ، أي : دلائل الأحوال ، فدلت من حيث كان المتعارف من عادات الناس التي لا تختلف ، وطبائعهم التي لا تتبدل ، أن لا يسلموا لخصومهم الفضيلة ، أي أن هذا خلق وغريزة في النفس البشرية لا تتبدل ، وسجية وخصلة وطبيعة لا تتغير إن لايسلموا لخصومهم الفضيلة وهم يجدون سبيلاً إلى دفعها ولا ينتحلون العجز وينسبونه إلى نفوسهم وباستطاعتهم ردهم وقهرهم والظهور عليهم ، « يُبَيِّنُ ذلك أَن العدوَّ يقصدُ لدفعِ قولِ عدوه بكل ما قدر عليه من المكايد ، لاسيما مع استعظامه ما بَدَهه بالمجيء من خلع آلهته ، وتسفيه رأيه في ديانته ، وتضليل آبائه ، والتغريب عليه بما جاءَ به ، وإظهار أمر يوجبُ الانقياد لطاعته ، والتصرف على حكمِ إرادته ، وتحكيم الغير في ماله ، وتسليطه إياه على جملة أحواله ، والدخول تحت تكاليف شاقة ، وعبادات مُتْعِبة » نازعهم في

ملكهم ، زلزل كيانهم المفاهيم انهارت ، البساط سُحِبَ من تحت أرجلهم ، كانوا السادة والقادة فقدوا كل ذلك ، فلو كان في مقدورهم وهم أصحاب الحَمِيَّة ، والهمم الكبيرة أَنْ يتوصلوا للرد عليه لما ترددوا ولما كاعوا وَجَبُنوا وهم ﴿ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴾ ﴿ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴾ ﴿ لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ كيف وأنَّ الشاعر أو الخطيب أو الكاتب يبلغه أن بأقصى الإقليم الذي هو فيه من يَبْأى بنفسه (أي يفاخر ويباهي بها) ويدل بشعر يقوله أو خطبة يقوم بها أو رسالة يعملها ، فيدعو هذا غيره إلى أنْ تعصف به الحميةُ والأنفة أن يعارضه ويظهر ما عنده من الفضل ، ويبذل ما لديه من المنة ، وأنه لا أحد أحسن من الآخر ، وأن ما عندك يوجد عندنا مثله وأمثال حتى إنه ليتوصل إلى أن يكتب إليه ، وأن يعرض كلامه عليه ببعض العلل وبنوعٍ من التمحل ، هذا وهو لم ير ذلك الإنسان قط ، ولم يكن منه إليه ما يهز ويحرك ويهيج على تلك المعارضة ، بخلاف قريش فإن دواعي التحدي وموجبات التحرك وما يهيج موجودة ، فالقرآن يتحداهم ، ويمعن في التحدي ، ويجعل من ضمن أحكامه استباحة دمائهم ، وأموالهم ، وسَبْي ذريتهم ، فلو كانوا يقدرون على تكذيبه لفعلوا !! فما بالك إذا كان ذلك المدعي بمرأى منه ومسمع يقرعه صباحاً ومساء ، لا شك بأن ذلك أدعى إلى مباراته ، وإلى إظهار ما عنده ، وإلى أَنْ يَعْرِفَ الناسُ أَنَّهُ لا يَقْصُرُ عنه ، أو أنه منه أفضل ، كلها أمورٌ تُهَيِّضُ

على المقاولة والمعارضة ، وهي أساليبُ تدعو للاستفزاز والاحتشاد ألا ترى أنهم قد ينافر شعراؤُهم بعضهم بعضاً ؟ ولهم في ذلك مواقف معروفة ، وأخبارٌ مشهورة ، وآثارٌ منقولة ، وكانوا يتنافسون على الفصاحة والخطابة والذّلاقة ، ويبتجحون بذلك ، ويتفاخرون بينهم ، فهل يجوز والحال هذه أن يتغافلوا عن معارضته لو كانوا قادرين عليها ، تحدَّاهم أو لم يتحدّهم إليها .

فإن إنضاف إلى ذلك أن يدعو الرجلُ إلى مُمَاتَنَتِه(١) ، ويحركه لمُقَاوَلَتِه ، فذلك الذي يُسْهِرُ لَيْلَهُ ويسلبه القرار ، حتى يستفرغَ مجهوده في جوابه ويبلغ أقصى الحد في مناقضته ، كل هذه حوافز للمعارضة ، ولكنَّ القومَ عجزوا ، وبقوا حائرين ؛ إذ كان التحدي قائماً والخصم يستفز ويحرك ، وهو يبالغُ في الاستفزاز ويدعو إلى ركوب مَتْنِ التحدي ويحرك على القول بالإتيان بسورة مثله ، بعشر سور ، لتكن مفتراة ، لتكن كما تقولون مفتريات ، كلها أمورٌ تدعو إلى استفراغ المجهود في جوابه ، وَكَدِّ الذهن وبذل أقصى الحد في مناقضته ، لكنَّ القومَ واجمون ، ولو قدروا على ذلك لما عدلوا عنه ولو كان في وسعهم وتحت أقدارهم لم يتكلفوا هذه الأمور الخطيرة ، ولم يركبوا تلك الفواقر المبيرة ، ولم يكونوا تركوا السهل الدمث من القول إلى

---

(١) المماتنة : أن يقول أحد الشاعرين بيتاً ويقول الآخر بيتاً كأنهما يمتدان إلى غاية .

الحزن الوعر من الفعل هذا ما لا يفعله عاقلٌ ، ولا يختاره ذو لُبّ .

[وقد عرفت قصة جرير والفرزدق ، وكل شاعرين جمعهما عصر ، ثم عرض بينهما ما يهيج على المقاولة ، ويدعو إلى المفاخرة والمنافرة ، كيف جَدَّ كُلُّ واحدٍ منهما في مغالبة الآخر ، وكيف جعل ذلك هَمَّهُ وكَدَّهُ ، وقَصَرَ عليه دهره ، هذا وليس به ولا يخشى إلا أن يُقْضَى لصاحبه بأنّه أشعرُ منه ، وأَن خاطره أحَدّ ، وقوافيه أشرد لا ينازعه مُلْكاً ولا يفتئت عليه بغلبته له حقاً ، ولا يلزمه به أتاوة ولا يضرب عليه ضريبة][1] .

وقد عرفت قصة جرير والفرزدق ، وكيف لجَّ بهما العناد ، حتى جعل كلٍّ واحد منهما هاجسه وديدنه مغالبة صاحبه ، والظهور عليه ، لأن من طبيعة المعاصرة أن توجد شيئاً من التنافس وقد كانا متعاصرين ، كلٌّ واحد منهما حريصٌ على أن لا يُقْضَى لصاحبه وهكذا حالُ كُلِّ ندَّيْنِ جمعهما عَصْرٌ ، وأغرى بينهما ما يهيج على المقاولة ، فإن كل واحد منهما يحشد من العلل والأسباب ، ما يجعله يتفوق على خصمه ، وهذا ما كان بين جرير والفرزدق ، فقد جَدَّ كلٌّ واحدٍ منهما في مغالبة صاحبه وجعل ذلك همّه وكدّه وقصر عليه دهره ، فكان شغله الشاغل ، كل ذلك لئلا يُقضَى

---

(١) الرسالة الشافية للإمام عبد القاهر الجرجاني / (١٠٩) .

لصاحبه بأنه أشعرُ منه ، فلم يكن ليستسيغ أحدهما أَنْ يُقال عن الآخر بأنه أشعرُ منه ، وحينئذ يموت كمداً ؛ فكيف يُجَوِّزُ أن يقال بأنَّ خاطره أَحَدّ ؟! وأن المعاني تتسابقُ إلى ذهنه فيصوغها في أجمل صور ، هذا إلى سرعة خاطر ونفاذ قريحة ، ولذا فقد كان الفرزدق يغضب من قولهم : جرير يغترف من بحر ، والفرزدق ينحت من صخر ، ولم يكن ليستسيغه ، فكيف إذا قيل : قوافيه أشرد ؟!

والقوافي الشرود التي سارت بها الركبان لجودتها وشهرتها ! فهي الطامة . كل هذا مما يقدح زند كل منهما على مغالبة الآخر ، ومفاخرته ومنافرته ، وتحديه والإمعان في التحدي .

هذا ما كان من جرير والفرزدق ، وَلَجَّتْ بينهما النقائض ، وكان همُّ كُلٍّ منهما ألا يقضى لصاحبه بأنه أشعر منه ، وأن خاطره أحدّ ، وأن قوافيه أشرد ، وهو لا ينازعه مُلْكاً ، ولا يفتئت عليه بغلبته له حقاً ، يعني أنه لو تقدم أحدهما على الآخر فلن يترتب على هذا ضياع ملك ، أو ذهاب حق ، أو فرض أتاوة أو ضريبة ، وإنما غاية الأمر أن يقال بأنه أشعر وهذا يجعله يموت كمداً . . وقريش نازعهم الرسول ﷺ في ملكهم ، وزلزل كيانهم ، وَسَخِرَ من معتقداتهم ، وأفتأت عليهم بغلبته لهم ، وألزمهم به أتاوة ، وبذل كل دواعي وموجبات التحدي ، وهم مبلسون لا يجدون جواباً ، على الرغم من أنهم قوم خصمون ولم يكن الرسول ﷺ ليملأ

عيونهم ﴿ أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴾ ؟! ﴿ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ ؟! . . ﴿ فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُواْ صَٰغِرِينَ ﴾ والحمد لله رب العالمين .

[وإذا كان هذا واجباً بين نفسين لا يروم أحدهما من مباهاة صاحبه إلا ما يجري على الألسن من ذكره بالفضل فقط ، فكيف يجوز أن يظهر في صميم العرب ، وفي مثل قريش ذوي الأنفس الأبية ، والهمم العلية ، والأنفة والحمية ، من يدعي النبوة ويخبر أَنه مبعوث من الله تعالى إلى الخلق كافة ، وأنه بشير بالجنة ونذير بالنار وأنه قد نُسِخَ به كل شريعة تقدمته ، ودينٍ دان به الناس شرقاً وغرباً ، وأنه خاتم النبيين ، وأنه لا نبي بعده ، إلى آخر ما صدع به ﷺ ثم يقول : « وحجتي أَنَّ الله تعالى قد أنزل عَلَيَّ كتاباً عربيّاً مبيناً ، تعرفون ألفاظه ، وتفهمون معانيه ، إلاّ أنكم لا تقدرون على أن تأتوا بمثله ولا بعشر سور منه ، ولا بسورة واحدة ، ولو جهدتم جهدكم واجتمع معكم الجن والإنس . . ثم لا تدعوهم نفوسهم إلى أَن يعارضوه ويُبيّنوا سَرفه في دعواه ، مع إمكان ذلك ومع أَنهم لم يسمعوا إلا ما عندهم مثله أو قريب منه ؟!

هذا وقد بلغ بهم الغيظ من مقالته ومن الذي ادعاه حدّاً تركوا معه أَحلامهم الراجحة وخرجوا له عن طاعة عقولهم الفاضلة ، حتى واجهوه بكل قبيح ، ولقوه بكل أذى ومكروه ووقفوا له بكل طريق ، وكادوه وكُلَّ من تبعه بضروب المكايدة ، وأرادوهم بأنواع الشر . وهل سمع قط بذي عقل

ومسكة استطاع أن يخرس خصماً له قد اشتط في دعواه بكلمة يجيبه بها ، فترك ذلك إلى أمور يُسَفَّهُ فيها ، ويُنسب معها إلى ضيق الذَّرْعِ والعَجْزِ ، وإلى أَنَّه مغلوبٌ قد أَعوزته الحيلةُ ، وَعَزَّ عليه المخلص أم هل عُرِفَ في مجرى العادات وفي دواعي النفوس ومبنى الطبائع أَن يَدَعَ الرَّجُلُ ذو اللّب حجته على خصمه ، فلا يذكرها ولا يُفْصِحُ بها ، ولا يُجَلِّي عن وجهها ، ولا يُريه الغلط فيما قال ، والكذب فيما ادَّعَى ولا يَدَّعِي أَنَّ ذلك عنده وأَنَّهُ مُستطيع له بل يجعل أول جوابه له ومعارضته إيّاه التسرع إليه والسفه عليه ، والإقدام على قطع رَحِمه ، وعلى الإفراط في أَذاه ؟ أم هل يجوز أن يخرج خارجٌ من الناس على قوم لهم رياسة ، ولهم دِيْنٌ ونِحْلَةٌ فيؤلب عليهم الناسَ ، ويدبرٍ في إخراجهم من ديارهم وأموالهم ، وفي قتل صناديدهم وكبارهم ، وسبي ذراريهم وأولادهم وعدّته التي يجد بها السبيل إلى تألُّف من يتألفه ، ودعاءِ من يدعوه ، دعوى له إذا هي أُبطلت بَطُلَ أَمْرُهُ كُلَّهُ وانتقض عليه تدبيره ، ثم لا يعرض له في تلك الدعوى ولا يشتغل بإبطالها مع إمكان ذلك ، ومع أَنَّهُ ليس بمتعذر ولا ممتنع ؟!

وهل مثلُ هذا إلا مثل رجل عرض له خصم من حيث لم يحتسبه ، فادعى عليه دعوى إن هي سمعت كان منها على خطر في ماله ونفسه ، فأَحضر بينة على دعواه تلك ، وعند هذا المُدَّعى عَلَيْهِ ما يُبْطِلُ تلك البينة . أو يعارضها ، وما يَحُولُ على الجملة بينه وبين تنفيذ دعواه ، فيدع إظهار

ذلك والاحتجاج به ، ويضرب عنه جملة ، ويدعه وما يريد من إحكام أَمره وإتمامه ثم يصير الحال بينهما إلى المحاربة وإلى الإخطار بالمهج والنفوس فيطاوله الحرب ، ويقتل فيها أولاده وأَعزته ، وينهك عشيرته ويغنم أَمواله ، ولا يقع له في أَثناء تلك الحال أن يرجع إلى القاضي الذي قضى لخصمه ، ولا إلى القوم الذين سمعوا منه وتصوروه بصورة المحق فيقول : لقد كانت عندي ـ حين ادّعى ما ادّعى ـ بينةٌ على فساد دعواه وعلى كذب شهوده ، قد تركتها تهاوناً بأَمره ، أو أُنسيتها أَو منع مانعٌ دون عرضها ، وها هي هذه قد جئتكم بها فانظروا فيها لتعلموا أنكم قد غُرِرْتُم ؟ ومعلوم بالضرورة أَن هذا الرجلَ لو كان من المجانين لما صَحَّ أَن يفعل ذلك ، فكيف بقوم هم أَرجح أَهل زمانهم عقولاً ، وأكملهم معرفة ، وأَجزلهم رأْياً ، وأَثقبهم بصيرة ، فهذه دلالة الأَحوال .

وأَما دلالة الأَقوال فكثيرة . منها حديث ابن المغيرة رُوي أَنَّه جاءَ حتى أَتى قريشاً فقال : إنَّ الناس يجتمعون غداً بالموسم ، وقد فشا أَمر هذا الرجل في الناس فهم سائلوكم عنه فماذا تردون عليهم ؟ فقالوا : مجنون يخنق ، فقال : يأتونه فيكلمونه فيجدونه صحيحاً فصيحاً عادلاً فيكذبونكم ! قالوا : نقول هو شاعر . قال هم العرب . وقد رووا الشعر وفيهم الشعراء ، وقوله ليس يشبه الشعر فيكذبونكم ! قالوا : نقول كاهن قال : إنهم لقوا الكهان فإذا سمعوا قوله لم يجدوه يشبه الكهنة فيكذبونكم ! ثم انصرف إلى منزله ، فقالوا : صبأ

الوليد ـ يعنون أَسلم ـ ولئن صبأَ لا يبقى أَحدٌ إلا صبأَ ، فقال لهم ابن أَخيه أَبو جهل بن هشام بن المغيرة : أَنا أكفيكموه ، قال : فأتاه محزوناً ، فقال : ما لك يا ابن أَخ ؟ قال هذه قريش تجمع لك صدقة يتصدقون بها عليك . تستعين بها على كبرك وحاجتك ، قال : أولست أكثر قريش مالاً ؟! قال : بلى ولكنهم يزعمون أَنك صبأَت لتصيب من فضل طعام محمد وأَصحابه . قال : والله ما يشبعون من الطعام فكيف يكون لهم فضول ؟! ثم أَتى قريشاً . فقال : أَتزعمون أَني صبأْت ولعمري ما صبأْت ، إنكم قلتم محمد مجنون ، وقد ولد بين أَظهركم لم يغب عنكم ليلة ولا يوماً ، فهل رأيتموه يخنق قط ؟ فكيف يكون مجنوناً ولم يخنق قط ؟ وقلتم شاعر ؟ وأنتم شعراء ، فهل أحدٌ منكم يقول ما يقول؟ وقلتم كاهن ، فهل حدثكم محمد في شيءٍ يكون في غد إلا أَن يقول إن شاء الله ؟ قالوا : فكيف تقول يا أَبا المغيرة ؟ قال : أَقول هو ساحر . فقالوا : وأَي شيء السحر ؟ قال : شيء يكون ببابل من حذقه فرق بين الرجل وامرأته والرجل وأَخيه ، أَليس مما تعلمون أَنَّ محمداً فَرَّق بين فلان وفلانة زوجته ، وبين فلان وابنه ، وبين فلان وأَخيه ، وبين فلان ومواليه ، فلا ينفعهم ولا يلتفت إليهم ولا يأْتيهم ؟ قالوا بلى . فاجتمع رأيهم على أَن يقولوا إنَّه ساحر ، وأَن يردوا النَّاسَ عنه بهذا القول . وانصرف ، فمر بأَصحاب النبي ﷺ منطلقاً إلى رحله ، وهم جلوس في المسجد فقالوا : هل لك يا أَبا المغيرة إلى خير ؟ فرجع إليهم

فقال : ما ذلك الخير ؟ فقالوا التوحيد ، قال : ما يقول صاحبكم إلا سحراً وما هو إلا قول البشر يرويه عن غيره ، وعبس في وجوههم وبسر . ثم أدبر إلى أهله مكذباً ، واستكبر عن حديثهم الذي قالوا له وعن الإيمان ، فأنزل الله تعالى : ﴿ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ﴾ . ومنه ما رواه محمد بن كعب القرظيّ قال : حُدِّثْتُ أَنَّ عتبة بن ربيعة ـ وكان سيداً حليماً ـ قال يوماً : أَلا أَقوم إلى محمد فأُكلمه فأَعرض عليه أُموراً لعله أَن يقبل منها بعضها فنعطيه أَيها شاءَ ؟ وذلك حين أَسلم حمزة رضي الله عنه ، ورأَوا أَصحاب النبي ﷺ يكثرون ، قالوا : بلى يا أَبا الوليد ! فقام إليه وهو ﷺ جالس في المسجد وحده ـ فقال يا ابن أخي ! إنك منا حيث علمت من السِّطَة في العشيرة والمكان في النسب وإنك أتيت قومك بأَمر عظيم . فرقت بين جماعتهم وسفهت أَحلامهم ، وعبت آلهتهم ، وكفرت من مضى من آبائهم . فاسمع مني أعرض عليك أُموراً تنظر فيها لعلك أن تقبل منها بعضها ، فقال رسول الله ﷺ : قل . قال : إن كنت إنما تريد المال بما جئت به من هذا القول ، جمعنا لك من أَموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً ، وإن كنت تريد شرفاً سوّدناك حتى لا نقطع أَمراً دونك ، وإن كنت تريد به ملكاً ملكناك علينا ، وإن كان هذا الذي بك رئيّاً لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه ، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه ، أَو لعل هذا شعر جاش به صدرك ، فإنكم

لعمري بني عبد المطلب تقدرون من ذلك على ما لا نقدر عليه ، حتى إذا فرغ قال له رسول الله ﷺ : أَوَقد فرغت ؟ قال : نعم ، قال فاسمع مني ، قال : قل . قال : ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ * حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾ ثم مضى فيها يقرؤها فلما سمعها عتبة أَنصت له ، وأَلقى يديه خلف ظهره معتمداً عليهما ، يستمع منه حتى انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة منها فسجد ، ثم قال له : قد سمعت ما سمعت فأَنت وذاك ! فقام عتبة إلى أَصحابه ، فقال بعضهم لبعض ، لقد جاءَكم أَبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به ، فلما جلس قالوا ما وراءك ، قال : ورائي أَني سمعت قولاً والله ما سمعت بمثله قَطُّ . وما هو بالشعر ولا السحر ولا الكهانة ، يا معشر قريش أَطيعوني ، خَلُّوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه واعتزلوه ، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت نبأٌ ، فإن تُصِبْهُ العربُ فقد كُفيتموه بغيركم ، وإن يظهر على العرب فملكه ملكهم وكنتم أَسعد الناس به ، قالوا سحرك بلسانه ! قال : هذا رأْيي فاصنعوا ما بدا لكم .

ومنه ما جاء في حديث أَبي ذر في سبب إسلامه : رُوي أَنَّهُ قال : قال لي أَخي أنيس : إن لي حاجة إلى مكة ، فانطلق فراث ، فقلت ما حبسك ؟ قال : لقيت رجلاً يقول : إن الله تعالى أَرسله فقلت : فما يقول الناس ؟ قال : يقولون : شاعر

ساحر كاهن . قال أبو ذر : وكان أنيس أحد الشعراء قال : تالله لقد وضعت قوله على أقراء الشعر فلم يلتنئم على لسان أحد ، ولقد سمعت قول الكهنة فما هو بقولهم ، والله إنه لصادق وإنهم لكاذبون - ومن ذلك ما روي أَنَّ الوليد بن عقبة أتى النبي ﷺ فقال : اقرأ . فقرأ عليه : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ فقال أعد ، فأعاد ، فقال : والله إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإنَّ أسفله لَمُعرِقٌ ، وإن أعلاه لمثمر وما يقول هذا بشر][1] .

الشيخ الجرجاني بعد أن تحدث عن دلائل الأقوال ودلائل الأحوال ودلالتها قطعية على ثبوت عجز العرب عن معارضة القرآن الكريم ، وفيه أيضاً أن القرآن الكريم قد اشتمل على خصائص ومزايا تفرد بها دون كلامهم لهذا تيقنوا من العجز عن المعارضة . . بعد هذا أراد الشيخ الجرجاني أَنْ يورد وجوهاً مما يمكن اعتباره اعتراضاً صريحاً أو اعتراضاً مفترضاً من قبل من يغمز في تلك الأدلة القولية والعقلية ثم قام بالرد عليها بأبلغ رد وأَعظمه . .

[واعلم أنه لا يجوز أن يقال في هذا وشبهه ، أنه لا يكون دليلاً حتى يكون من قول المشركين بعضهم لبعض حين خلوا

---

(١) الرسالة الشافية في إعجاز القرآن للإمام الجرجاني ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن الكريم / ١٢٥ .

بأنفسهم . فتفاوضوا وتحاوروا وأفضى بعضهم بذات نفسه إلى بعض ؟ وإن كان منه من كلام المؤمنين ، أو ممن قاله ثم آمن . فإنه لا يصح الاحتجاج به في حكم الجدل من حيث يصير كأَنك تحتج على الخصم برأي تراه أنت . وبقول أنت تقوله] .

ما يريد قوله الإمام الجرجاني رحمه الله أَنَّ من أصول المناظرة والجدل ، أن يكون مصدر الدليل متفقاً عليه سلفاً ، فأما قول المؤمنين أنَّ القرآن الكريم معجز ، وأنّه من كلام العلي الخبير فإنه قد يحتج المشركون بأنا لا نسلم لكم ما ادعيتموه ، وأن هذا من باب العاطفة ، فأنتم منساقون وراء عواطفكم ، وهذا لا يصح الاحتجاج به في باب الجدل ، من حيث يصير كأنك تحتج على الخصم برأي تراه أنت وبقول أنت تقوله .

والقول بإعجازه ليس من قول المشركين بعضهم لبعض حين خَلَوا بأنفسهم فتفاوضوا وتحاوروا وأفضى بعضهم بذات نفسه إلى بعض ، فذلك وإن حصل من شواهد الأحوال والأقوال ، إلا أن الأمر ليس كذلك ، نحن نورد شيئاً عاماً مطلقاً ثبت واستقر فهو من المُسَلَّمَاتِ التي أضحت معروفة ومعلومة بالضرورة وكالشمس في رَابِعَة النَّهار ، فكون القرآن الكريم معجز ، والعجز به قائم ، وقد عجز عنه العرب وهم أهله وبلغتهم نزل ، فعجز غيرهم من باب أولى وهذا معنى قول الجرجاني [**فأما ما كان مخرجه مخرج التنبيه على أمر**

يعرفه ذوو الخبرة ، وأطلقهُ قائله إطلاق الواثق بأنه معلوم للجميع ، وأَنه ليس من بصير يعرف مقادير الفضل والنقص إلا وهو يحوج إلى تسليمه والاعتراف به شاءَ أم أبى فهو دليل بكل حال ؛ ومن قول كل قائل] نعم إنَّ ذوي الخبرة بفنون القول والدراية بأساليب الكلام ، وذوي البصر في الترجيح بين أفانين القول والمقتدرون على التصرف في أودية الكلام لا يسعهم إلا التسليم به والاعتراف بإعجازه شاء أم أبى ، ولذلك كانوا يجدون له وقعاً في القلوب وقرعاً في النفوس يريبهم ويحيرهم ، ولذا قال قائلهم إنَّ له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة . .

وعلى هذا فالاعتراف بإعجازه ثبت واستقر ، من شهادة الكفار بعضهم لبعض ومن دلائل أحوالهم وأقوالهم ، وأمر ثبت واستقر لدى المؤمنين أيضاً . .

[فهو دليل بكل حال ؛ ومن قول كل قائل ، وحجة من غير مثنوية ، ومن غير أن ينظر إلى قائله أَموافق أَم مخالف ، ذلك لأن الدلالة ليست من نفس القول وذات الصفة ، بل في مصدرهما وفي أَن أُخرجا مخرج الإخبار عن أمر هو كالشيء البادي للعيون لا يعمل أَحدٌ بَصَرَه إلاَّ رآه] .

إنَّ ثبوت هذا الأمر من إعجازه وتواتره واستفاضته إلى حد بلغ درجة اليقين يقطع ويجزم بإعجازه ، من غير أَنْ يُنْظَرَ إلى القائل به أمسلمٌ مقتنعٌ ومتيقنٌ أم كافر مخالف يفضي بذلك إلى ذات نفسه أَو إلى رهطه ، لأن الدلالة على إعجازه ليست من نفس قول القائل المسلم أنَّه معجزٌ ، ولا ذات صفته في

كونه مسلم ، وإنما في مصدرهما وزيادة على ذلك أن القول بإعجازه صار كالأمر البادي للعيان والأمور المسلمة الضرورية والدليل الذي لا يقبل الجدل والمناقشة ، والذي لا يعمل أحدٌ بصره إلاَّ رآه . .

[إذا رأَينا الأحوال والأَقوال فمنهم قد شهدت كالذي بان باستسلامهم للعجز علمهم بالعظيم من الفضل والبائن من المزية . إذا قيس إلى ما يستطيعونه ويقدرون عليه في ضروب النظم وأنواع التصرف ، فاته الفوت الذي ينال . وارتقى إلى حيث لا تطمع فيه الآمال فقد وجب القطع بأنه معجز] .

وإذ قد وقفنا على دلائل الأحوال من انقطاعهم دونه ، وهم أَصحاب اللسن والتصرف في أودية الكلام ومع ذلك هم ناكبون عاجزون أمام سحر بيانه وسلاسة نظمه ، وتميزه بأسلوب يفوق ما تعارفوه في شعرهم ونثرهم ما دفعهم إلى ضيق الذرع وعَزَّ عليهم المخلص حتى نابذوه وناصبوه العداء والحرب فهلكت النفوس وأريقت المهج وقطعت الأرحام وذهبت الأموال ، ولو كان ذلك في وسعهم وتحت أَقدارهم لم يتكلفوا تلك الأمور الخطيرة ، ولم يركبوا تلك الفواقر المبيرة . .

وأما دلائل الأقوال فقد شهدت بعجزهم واستسلامهم لما علموه فيه من عظيم الفضل والمزية حتى قال قائلهم : « والله إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة » .

وقول عتبة بن ربيعة : « سمعت قولاً والله ما سمعت بمثله

قط ، وما هو بالشعر ولا السحر ولا الكهانة ، يا معشر قريش أطيعوني . خَلُّوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه واعتزلوه فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت نبأٌ » .

إذن فقد كانوا يحسون العجز حتى وقفوا مبهورين أمام عظمته .

[ذلك لأَنه ليس إلاَّ أَحد أَمرين . فإما أَن يكونوا قد علموا المزية التي ذكرنا أَنهم علموها على الصحة . وإما أَن يكونوا قد توهموها في نظم القرآن وليست هي فيه لغلط دخل عليهم . ودعوى الثاني من الأمرين « سَخَفٌ » : فإن ذلك لو ظُنَّ بالواحد منهم لبعد ذلك لأَنه لا يُتصور أَن يتوهم العاقل في نظم كلامٍ ـ جلَّ مناه ومنى أَصحابهِ أن يستطيع معارضته وأن يقدر علىً إسكات خصمه المباهي به ـ أَنه قد بلغ في المزية هذا المبلغ العظيم غلطاً وسهواً ، فكيف بأن يشتمل هذا الغلط كلَّهم ويدخل على كافتهم ؟!] .

يريد أن يقول الإمام الجرجاني رحمه الله : والأمر في إعجاز القرآن الكريم وما راعهم من نظمه العجيب وشجوه الغريب أَحدُ أمرين :

١ ـ إما أن يكونوا قد اعترفوا بأنه معجوزٌ عنه غير مقدور عليه عن قناعة تامة ، ذلك لأنه جاء بأفصح الألفاظ في أحسن نظوم التأليف مضمّناً أصحّ المعاني ، وأنه جمع أعلى طبقات الكلام من البليغ الرصين الجزل ، إلى الفصيح القريب السهل ، إلى الجائز الطلق الرسل ، فامتزج له بهذه

الأوصاف نمط من الكلام يجمع بين صفتي الفخامة والعذوبة ، فلا ترى نظماً أحسن تأليفاً وأشدّ تلاؤماً وتشاكلاً من نظمه ، والمعاني . فلا خفاء على ذي عقل أنها هي التي تشهد لها العقول بالتقدم في أبوابها والترقي إلى أعلى درجات الفضل من نعوتها وصفاتها ، إما أن يكونوا (أي قريش) قد علموا المزية التي ذكرنا في أوصاف القرآن الكريم على الصحة واليقين لاسيما وأنهم كانوا عرباً فصحاء ، مقتدرون على التصرف في أودية الكلام ، عارفون بنظومه قصيده ورجزه وسجعه وسائر فنونه ، يتبيّنون مواضع تلك الأمور ويعرفون ما يلزمهم من شروطها ومن العهدة فيها . . من هنا كاعوا وجبنوا عن معارضته كما دل على ذلك شاهد الحال والمقال . . .

٢ ـ أما الأمر الثاني : فإن يكونوا قد توهموا هذه الأمور في نظم القرآن ، وأَنه إنّما تعذر على البشر الإتيان بمثله لأنه جاء بأفصح الألفاظ ، في أحسن نظوم التأليف ، مضمناً أصح المعاني من توحيد له عزت قدرته ، إلى تنزيه له في صفاته ، ودعاء إلى طاعته وبيان بمنهاج عبادته من تحليل وتحريم وحظر وإباحة ووعظ وتقويم ، وأمر بمعروف ونهي عن منكر . . ومعلوم أن الإتيان بمثل هذه الأمور والجمع بين شتاتها حتى تنتظم وتتسق أمرٌ تعجز عنه قوى البشر ، ولا تبلغه قُدَرُهُم فانقطع الخلقُ دونه ، وعجزوا عن معارضته بمثله أو مناقضته في شكله . إن يكونوا قد

توهموا هذه الأمور في نظم القرآن الكريم وليست هي فيه !! وكيف ؟! لغلط دخل عليهم . . يقول الإمام الجرجاني رحمه الله : ودعوى الثاني من الأمرين (سَخَفٌ) لماذا ؟ قال : لأن مثل هذا الكلام لا ينطبق على الواحد منهم فكيف بجلتهم ؟! وكيف يمكن أن يتصور أو أن يقع في روعِ عاقلٍ أو أَنْ يتوهم أَنْ يَنْفُقَ مثلُ هذا الكلام على أحدٍ من العرب أو من قريش ، وهم أَرباب الفصاحة والبيان ، والذين ما فتئوا يبحثون عن مغمزٍ أو أَنْ يجدوا في القرآن مطعناً ، فكيف يمكن أن يقال بأنهم قد التبس عليهم الوجه في إعجازه ؟ كيف يُمكِنُ أَنْ يُقالَ مثلُ هذا القول في نظم كلامٍ جلَّ مناه ومنى أصحابه أن يستطيع معارضته ، وأن يقدر على إسكات خصمه المباهي به ! والرسول ﷺ يطالبهم به مدة عشرين سنة مظهراً لهم النكير ، زارياً على أديانهم ، مسفهاً آراءَهم وأحلامهم ، فعجزوا عنه وانقطعوا دونه حتى نابذوه وناصبوه الحرب ، فهلكت فيه النفوس ، وأريقت المهج وقطعت الأرحام ، وذهبت الأموال ، ولو كان ذلك في وسعهم وتحت أقدارهم لم يتكلفوا هذه الأمور الخطيرة ، ولم يركبوا تلك الفواقر المبيرة ، ولم يكونوا تركوا السهل الدمث من القول إلى الحزن الوعر من الفعل ، وهذا ما لا يفعله عاقل ولا يختاره ذو لب ، وقد كان قومه قريش خاصة موصوفين برزانة الأحلام ، ووفارة العقول والألباب ؟!

وإذ قد ثبت هذا وتبين أَنَّ قريشاً كانت حريصة على أن تَهْتَبلَ الفرصةَ في مجاراة القرآن الكريم ومعارضته ، بل كانت أُمنيتها أنْ تقع على شيء يُجوزُ لها الفَلَجَ عليه والغلب والظفر ، لما تعلم من المزية فيه من روعة بيانه وسلاسة أسلوبه وفخامة ألفاظه ودقة معانيه ، وما يتحلى به من الرونق والبهجة التي يباين بها سائر الكلام ، حتى يكون له هذا الصنيع في القلوب ، والتأثير في النفوس فتصطلح من أجله الأَلْسُنُ على أَنه كلام لا يشبهه كلام ، وتحصر الأقوال عن معارضته وتقطع به الأَطماع ، فكيف يقال بعد هذا بأَنها إنما توهمت « المَزِيَّةَ » في إعجازه وأَن ذلك إنما هو خلطٌ وَلَبْسٌ وَقَعَتْ فيْهِ ، وَإلاَّ فَلا إعْجَازَ وَلا تَحَدٍّ وإنَّمَا مُجَرَّدُ أَوهامٍ وأَخاليطَ دخلت على قريش والعرب فقالت بإعجازه ، وإذا سلمنا بهذا جدلاً فهل عُرِفَ عن العرب من قريش أو من جاء بعدهم من أنكر إعجازه ، وهل عُرِفَ بأن أحداً من العرب من قريش أو من جاء بعدهم من حاكاه ، أو حاول معارضته ؟ ثم هل دخل أَحدٌ في الإسلام وارتد عنه سواء في حياة النبي ﷺ أو بعد وفاته ، وَمِنْ ثَمَّ ادَّعَى هذا المرتدُّ بأَنَّ رِدَّتَهُ بِسَبَبِ أَنَّه تَوَهَّمَ فصاحةَ القرآنِ وَبَلاَغَتَه ، والأمر ليس كذلك وهذا سببُ ردته ، لم يحدث شيءٌ من هذا حتى الذين ارتدوا عن الإسلام بعد أنْ لحق الرسول ﷺ بالرفيق الأعلى ، لم تكن ردتهم لشيءٍ إلا لأنهم لم يجوزوا الموت على رسول الله ﷺ ، أو لعارض دنيوي كمنع الزكاة ، أو لأنهم كانوا منافقين أَصلاً ولم

يدخل الإيمانُ في قلوبهم ، أما من خالطت بشاشةُ الإيمان قلبه ، فلم يؤثر عنه إنه ارتد أبداً ، بل إن هناك جماعة من أرباب القلوب ، وذوي الاستغراق ، في بديع أوصاف المحبوب ، حصل له من سماع آياته ما أخرجه من طوره ، وربما مات على فوره ، وتدَلّهتْ به أَلباب جماعة من المحسنين . والقلوب مقبلة على أذكاره ، راغبة في تكراره ، شجيه عند سماع مزماره ، يجد ذلك المؤمن والكافر ، والبر والفاجر . رُوي أن نصرانياً مرَّ بقارىء فوقف يبكي فقيل له ممَّ بكاؤك ؟ قال : « الشجا والنظم » .

إذا ثبت هذا ولم يصدق من فردٍ واحدٍ أن أنكرَ فصاحة القرآن الكريم ، ولم يقل بها ، فكيف يمكن أن يُتَصَوَّرَ ذلك من كافَّتِهِمْ ؟

وكيفما كانت الحال ودارت القصة ، فقد حصل باعترافهم قولاً ، وانقطاعهم عن معارضته فعلاً أَنه معجزٌ ، وفي ذلك قيام الحجة ، وثبوت المعجزة ، والحمد لله رب العالمين . .

[وأي عقل يرضى من صاحبه بأَن يتوهم عليهم مثل هذا الغلط . وهم من إذا ذاق الكلام عرف قائله من قبل أَن يُذكر ؛ ويسمع أَحَدُهُم البيت قد استرفده الشاعر فأَدخله في أثناءِ شعرٍ له ، فيعرف موضعه وينبه عليه كما قال الفرزدق لذي الرُّمة : أَهذا شعرك ؟ هذا شعر لاكه أَشدُّ لَحْيَيْنِ منك . إلى ضروب من دقيق المعرفة يقل هذا في جنبها ، وإذا لم يصح الغلط عليهم ، ولم يجز أن يدعي أنه كان في زمانهم من كان بالأمر

أعلم وبالذي وقع التحدي إليه أقوم ، فقد زالت الشبهة في كونه معجزاً له] .

يريد أن يقول الإمام الجرجاني رحمه الله : وكيف يمكن أن يقال بأن الأمر قد التبس عليهم في إعجازه وأنهم قد توهموه ، وهم أهلُ الفصاحةِ واللسن ، ومن عرف تصاريف الكلام ، ولهم تذوّق للكلام عجيب ، حتى لا يتعسر على أحدهم أن يعرف أسلوب الرجل بمجرد سماعه ، ومن قبل أن يذكر له قائله ، وما قصة الفرزدق مع ذي الرُّمة عنا ببعيدة ؛ فقد ذكرت الرواة أَنَّ جريراً مرَّ بذي الرُّمة وقد عمل قصيدته التي أولها :

نَبَتْ عَيْناكَ عَنْ طَلَلٍ بحُزْوى عَفَتْهُ الريحُ وامتنح القِطَارَا

فقال أَلا أُنجدك بأبياتٍ تزيدُ فيها ! فقال نعم . فقال :

يَعُدُّ النَّاسِبُونَ بني تَميمٍ بيوتَ المجْدِ أَرْبَعَةً كِبَارَا
يعدُّون الرِّبابَ وآلَ تيمٍ وَسَعْداً ثُمَّ حَنْظَلَةَ الخِيارا
ويذهب بينها المرْئي لغواً كما أَلغيتَ في الدِّية الحُوارا

فوضعها ذو الرُّمَةِ في قصيدته ، ثمَّ مَرَّ به الفرزدق فسأَله عما أَحدث من الشعر ، فأنشده القصيدة ، فلما بلغ هذه الأَبيات قال : ليس هذا من بحرك ، مضيفها أَشَدُّ لَحْيَيْن منك ! فاستدركها بطبعه ، وفطن لها بلطيف ذهنه . . إذ كان الفرزدق قد علم بأَن ذا الرُّمة قد استرفد هذه الأبيات ، وأَنَّها من شعر ابن المرَاغةِ كما جاء في بعض الروايات ، والفرزدق لم يحضر الواقعة ، وإنما علم ذلك بقوة ذكائه ، ولطف

ذهنه ، والفرزدق إنما كان في عصر بني أمية ، قريباً من عصور الاختلاط ، فكيف بمن عايشوا القرآن ، وهم أَهله وفيهم نَزَل ، وهم أهلُ الفصاحة وأرباب اللسن ، هل يمكن بعد هذا كله أن يقال بأنهم قد توهموا القول في فصاحته ، وقد داخلهم في ذلك الغلط والخلط ، وهذا هو معنى قول الجرجاني : [وأي عقل يرضى من صاحبه بأن يتوهم مثل هذا الغلط ، وهم من إذا ذاق الكلام عرف قائله من قبل أن يُذكر ، ويسمع أَحدهم البيتَ قد استرفده الشاعرُ فأدخله في أثناء شعر له ، فيعرف موضعه وينبه عليه كما قال الفرزدق لذي الرُّمة : أَهذا شعرك ؟ هذا شعر لاكه أَشَدُّ لَحْيين منك] .

[إلى ضروب من دقيق المعرفة يقل هذا في جنبها ، وإذا لم يصح الغلط عليهم ، ولم يجز أَن يدعى أَنه كان في زمانهم من كان بالأَمر أَعلم ، وبالذي وقع التحدي إليه أقوم فقد زالت الشبهة في كونه معجزاً له] .

إلى ضروب من دقيق المعرفة يقل هذا في جنبها ، فهم من هم في الذكاء ، والفراسة والقيافة ، ولهم في هذا تصرف عجيب يشبه السحر ، فعن أم المؤمنين السيدة عائشة بنت الصديق رضي الله عنهما أَنّ النبي ﷺ دخل عليَّ مسروراً تبرق أَساريرُ وجهه فقال : أَلم تَرَي أَنّ مُجَزِّزاً[1] نظر إلى زيد بن

---

(١) ومجزز المدلجي القائف ، وإنما قيل له مجزّزٌ لأنه كلما أَسر أَسيراً جَزَّ ناصيته : تبرق أسارير وجهه : تضيء أَسارير وجهه ، =

حارثة وأسامة بن زيد ، قد غطيا رؤوسهما ، وبدت أقدامهما فقال : « هذه الأقدام بعضها من بعض » فقد أدرك مُجَزِّزٌ بفراسته أن أسامة من زيد مع كونه لا يعرفهما من قبل ، ومع كونهما قد غطيا رؤوسهما .

إذا كان هذا شأنهم ، وإذا لم يصح الغلط والوهم عليهم ، وكانوا يعرفون بلاغة القرآن الكريم ، وأنّه أمر تعجز عنه قوى البشر ، ولا تبلغه قُدَرُهُم ، فانقطع الخلق دونه ، وأنه يستحيل أن يكون في زمانهم من يجاريه أو يقوى على معارضته فقد زال الالتباس ، واندفعت الشبهة ، ووجب القطع في كونه معجزاً لسيدنا رسول الله ﷺ وهذا معنى قوله : [وإذا لم يصح الغلط عليهم ، ولم يجز أن يدعي أنه كان في زمانهم من كان بالأمر أعلم ، وبالذي وقع التحدي إليه أقوم ، فقد زالت الشبهة في كونه معجزاً له] .

[وإن قالوا : فإن ها هنا أَمراً آخر ، وهو ما علمنا من تقديمهم شعراء الجاهلية على أَنفسهم . وإقرارهم لهم بالفضل وإجماعهم في امرىء القيس وزهير والنابغة والأَعشى أنهم أَشعرُ العرب . وإذا كان ذلك كذلك فمن أَين لنا أَنْ نعلم أَنهم لم يكونوا بحيث لو تُحُدُّوا إلى معارضة القرآن لقاموا بها واستطاعوها !] .

= والأسارير : الخطوط التي تجتمع في الجبهة وتتكسر . انظر أُسْدُ الغابة في معرفة الصحابة لأبي الحسن علي بن محمد الجزري ص ٦٦ .

يريد أن يقول الإمام الجرجاني رحمه الله : إنَّه قد يعترض معترضٌ من أولئك المرجفين الذين سقمت أذواقهم وقلوبهم فيقول : نعم إنَّ قريشاً عجزوا عن معارضة القرآن الكريم ، وعرفوا المزيّة فيه ، وأَنهم لا يستطيعونه ، وهو متعذرٌ عليهم ، وهو عليهم شاقٌ ؛ لكنَّ هناك أمراً آخر ، وهو ما علمنا من تقديمهم لبعض شعراء الجاهلية ، واعترافهم لهم بالسبق ، والتقدم ، وشدة العارضة ، حتى أقروا لهم بالفضل ، وعلقوا أشعارهم على ظهر الكعبة ، كامرىء القيس ، وزهير[1] ، والنابغة ، والأعشى ، يقول صاحب العقد الفريد : « بلغ من كلف العرب بالشعر أَنْ عمدت إلى سبع قصائد ميزتها من الشعر القديم ، فكتبتها بماء الذهب في القباطي ، وعلقتها على أستار الكعبة فهي المذهبات » يقول هذا المعترضُ : فما الذي يمنع أَنْ يكون هؤلاء الشعراءُ أَقدرَ على معارضة القرآن الكريم والإتيان بمثله ، وأَنهم لو وجدوا

---

(١) امرؤ القيس بن حجر الكندي (الملك الضِّلِّيل) رأس رؤوس شعراء الطبقة الأولى وصاحب المعلقة المشهورة .
زهير بن أبي سلمى المزني رأس من رؤوس شعراء الطبقة الأولى من الجاهليين وصاحب المعلقة المشهورة التي حقن فيها دماء القبيلتين عبس وذبيان في حروب داحس والغبراء وهو من الشعراء الذين يعنون بالقصيد تمكث عندهم القصيدة حولاً كاملاً ، ويسمى هذا الشعر « الحوليُّ المحكَّك » ، يتلومون على رياضته ، وإحكام صنعته . الشعر والشعراء لابن قتيبة .

في عصر النبي ﷺ لكانوا أقدرَ على مقارعةِ القرآنِ ومعارضتهِ ، ولكان ذلك باستطاعتهم ! وهم عليه أقدر ، وله أسْيَر ، لاسيما وأنهم العرب الفصحاء المقتدرون على التصرف في أَودية الكلام ، العارفون بنظومه ، قصيده ، ورجزه ، وسجعه ، وسائر فنونه ، وقد أَقَرَّ لهم العرب بالفصاحة والفحولة والقدرة على امتلاك زمام البيان ، هؤلاء الشعراء الفحول كامرىء القيس ، وزهير والنابغة والأعشى وأَضرابهم ، ومن بلغ بهم الحال في الفصاحة والبيان أنْ عُلِّقَتْ أشعارهم على ظهر الكعبة ، هؤلاء الشعراء لو وُجِدُوا في عصر النبي ﷺ ونزل فيهم القرآن الكريم وتحداهم ببلاغته ودعاهم إلى معارضته ، لما تردَّدُوا في ذلك ، ولكانوا عليها أَقدر ، ولقاموا بها ، واستطاعوها وهذا هو معنى قول الإمام الجرجاني رحمه الله : [وإذا كان ذلك كذلك فمن أَين لنا أَنْ علم أَنهم لم يكونوا بحيث لو تُحُدُّوا إلى معارضة القرآن لقاموا بها واستطاعوها !] هذا اعتراض ساقه الإمام الجرجاني رحمه الله على لسان أولئك المرجفين الذين سَقُمَتْ أَذواقُهُمْ عن إدراك إعجاز القرآن وكنهه وبلاغته التي لا تسامى ولا تدانى . .

ثم يرد الإمام الجرجاني على هؤلاء فيقول : [**قيل لهم : هذا الفصلُ على ما فيه لا يقدح في موضع الحجة . وذلك أَنهم كانوا ـ كما لا يخفى ـ يروون أَشعار الجاهليين وخطبهم . ويعرفون مقاديرهم في الفصاحة معرفة من لا تُشكِلُ جِهَاتُ الفَضْلِ عليه**] .

وذلك أَنَّ قريشاً كانوا يروون أشعارَ الجاهليين ، ويعرفون أَقدارهم ، وكان الشعر ديوانهم وسجلَّ مفاخرهم ومآثرهم ، وكانوا يحتفون بالشاعر إذا نبغ فيهم ، ويجتمع النساء يلعبن بالمزاهر ، كما يصنعن في الأعراس .

وقد قال الأعشى يخاطب قومه ويبين لهم فضله عليهم :

وأَدْفَعُ عن أَعْرَاضِكُمْ وَأُعِيرُكُمْ لِسَاناً كَمِقْرَاضِ الخَفَاجِيِّ مِلْحبَا

والملحب : القاطع .

وبلغ من عناية القبائل بالشعر أَنَّ بني تغلب كانوا يعظمون قصيدة عمرو بن كلثوم المعلقة وكان يرويها صغارهم وكبارهم حتى هُجُوا بذلك فقال بعضُ شعراء بكر بن وائل :

أَلْهَى بَنِي تَغْلِبٍ عن كُلِّ مَكْرُمَةٍ قصيدةٌ قالها عَمْرُو بنُ كُلْثومِ
يَرْوُونَهَا أبداً مُذْ كان أَوَّلُهُمْ يا لَلّرجالِ لِشِعْرٍ غيرِ مَسْئُوم

ومازالت تعيشُ على الزمن قصة المحلق مع الأعشى ، وكان المحلق رجلاً فقيراً مُعْوِلاً وكان له تسعُ بنات ، ولم تكن العربُ لِتَقْدِمَ على بناته لفقره وضعفه ، فقيل له : إنَّ أبا بصير يعني الأعشى في طريقه إليك ، فأكرم وِفَادَتَهُ ليرفعك بشعره ، فلما أقبل الأعشى قَرَّبَهُ وَرَحَّبَ بِهْ وَعَمَدَ إلى ناقةٍ له لم يكن ليملك سواها فنحرها وقَرَّبَها للأعشى فقال الأعشى :

لعمري لقد لاحت عيون كثيرة إلى ضَوْءِ نارٍ باليفاعِ تُحَرَّقُ
تُشَبُّ لمقرورين يصطليانها وباتَ على النارِ الندى والمُحَلِّقُ

فما أمسى إلا وقد خُطِبَتْ جميعُ بَنَاتِه ، وفي هذا ما يدل

على قدرِ الشعر عندهم ومكانته . نعم كانت قريشٌ والعرب يروون أشعارَ الجاهليين وخطبهم ، ويعرفون لهم أقدارهم في الفصاحة معرفة لا تخفى عليهم جهة الفضل فيها ، وكانوا يعلمون من المتقدم منهم ، ومن هنا فقد كانت أشعار امرىء القيس ، وطرفة ، وزهير ، والنابغة من متخيّراتهم ، والتي كتبت بماء الذهب وعلقت على أستار الكعبة ، وعلى هذا فقد كانوا أولي بصر ودراية بصناعة الشعر ومعرفة بأقدار الكلام ، وإذا كان هذا شأنهم فهل يمكن أن يجهلوا مدى الفرق بين ما جاء به شعراء الجاهلية وبلاغة القرآن ؟! وهل كان من الممكن أن يسكتوا عن المجاهرة والإشادة بشعراء الجاهلية لو علموا أن فيما جاءوا به مزية على القرآن ، أو قريباً منه ، وهم من أحرص الخلق على أن يجدوا فيه مغمزاً وعليه مطعناً ، إن قريشاً والعرب الذين تحدوا بالقرآن لو وقع في وهمهم مجرد خاطر أن ما جاء به شعراءُ الجاهلية كامرىء القيس والنابغة مما يجاري القرآن الكريم أو يقاربه ، أو يعارضه لتمسكوا بذلك وقالوا للنبي ﷺ يا محمد أنت تتحدانا بالقرآن الكريم ونحن عاجزون عن ذلك لأنه ليس في مقدورنا ، فنحن لا نجيد القريض ولا علم لنا بصناعة الكلام وضروبه ، لكن هناك من الجهابذة من شعراء الجاهلية من هو أقدرُ على ذلك ، وهؤلاء قد ماتوا وانقرضوا ، ولو كانوا أحياء وتحديتهم لرأيت العجب العجاب ولاستطاعوا أن يعارضوا القرآن وأن يأتوا بمثله . هذا الكلام لم يُعرفْ عنهم ، ولم

يسمعْ بأن العرب وقريش قالت به أو صدر عنهم ولكن واقع الحال والمقال أَنَّهم لم يتعرضوا لشيء من ذلك ، ولو كان ذلك يقينياً عندهم لكانوا يَدَّعُونَ ذلك ويذكرونه ، ولو ذكروه لَذُكِرَ عنهم ، فكونه لم يؤثر عنهم ولم يُنْقَلْ فمعنى ذلك أَنَّهم يدركون مدى الفرق بين ما جاء به شعراءُ الجاهلية وبلاغة القرآن التي لا تداني ولا تباري . وهذا هو معنى قول الإمام الجرجاني رحمه الله [فلو كانوا يرون فيما رووا مزية على القرآن أو رأَوه قريباً منه أو بحيث يجوز أنْ يعارض بمثله ، أو يقع لهم إذا قاسوا أو وازنوا أَنَّ هذا الذي تُحُدُّوا إلى معارضته لو تحدى إليه من قبلهم لاستطاعوا أن يأتوا بمثله لكانوا يدعون ذلك ويذكرونه ، ولو ذكروه لذكر عنهم] .

[ومحال إذا رجعنا إلى أنفسنا واستشفعنا حال الناس فيما جبلوا عليه أن يكونوا قد عرفوا لمّا تُحُدُّوا إليه وَقُرِّعْوا بالعجز عنه شبهاً ونظماً . ثم يتلى عليهم ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ فلا يزيدون في جوابه على الصمت ، ولا يقولون : لقد روينا لمن تقدم ما علمت وعلمنا أنه لا يقصر عما أَتيت به ، فمن أَين استجزت أن تدعي هذه الدعوى ؟ فإذا كان من المعلوم ضرورة أنهم لم يقولوا ذلك ، ولا رأوا أَنْ يقولوه ولو على سبيل الدفع والتلبيس والشغب بالباطل] .

يريد أَنْ يقول الإمام الجرجاني رحمه الله : ومن الاستحالة إذا رجعنا إلى أَنفسنا وَجَرَّدْنَا أحوالَ الناس من جبلتهم وأَصل

خلقتهم وفطرتهم ، أن يكونوا قد عرفوا موضع المزية في القرآن الكريم ثم يدّعون بأنهم يقدرون على معارضته ثم يسكتون فصمتهم صمت العاجز ، لماذا ؟ لأن من طبع الإنسان فيما جُبِلَ عليه أن لا يقف صامتاً أمام التحدي ، ودواعي التحدي هنا قائمة والمولى عز وجل يتحداهم بقوله تعالى : ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ والتقريع بالعجز حاصل فمستحيلٌ الصمت مع القدرة وهذا معلوم من حال قريش فهم كما وصفهم القرآن الكريم ﴿ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴾ ﴿ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴾ ﴿ وَقَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴾ ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ وَقَالُوٓا۟ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ وكانوا ينفرون من التحدي ، وقد ينافر شعراؤهم بعضهم بعضاً ، ولهم في ذلك مواقفُ معروفة وأخبارٌ مشهورة ، وكانوا يتنافسون على الفصاحة والخطابة والذلاقة ، ويتبجحون بذلك ويتفاخرون بينهم ، فكيف يجوز والحال هذه أَنْ يتغافلوا أو أن يسكتوا عن معارضة القرآن مع القدرة عليه ، فإذا علم ذلك وأَنّهم لم يقولوه ، ولا أباحوا لأنفسهم أن يتقولوه مع توفر دواعي المعارضة من التحدي وهو يستطيل عليهم بأنهم عاجزون عن مباراته ، وأنهم يضعفون عن مجاراته فَلَمّا لم يفعلوا شيئاً من ذلك مع طول المدة ، ووقوع الفسحة ، وكان أمره يتزايد حالاً

فحالاً ، ويعلو شيئاً فشيئاً ، وهم على العجز عن القدح في آيته ، والطعن في دلالته ، عُلِمَ مما بينا أنهم كانوا لا يقدرون على معارضته ، ولا على توهين حجته .

وهذا الأمر معلوم ضرورة أنهم لم يقولوا ذلك ، ولا رأوا أن يقولوه . فإذا ما ثبت عجزهم عن مجاراته ، ولم يؤثر عنهم أنهم واجهوا النبي ﷺ فقالوا : يا محمد كيف أبحت واستجزت لنفسك أن تدّعي مثلَ هذه الدعوى في العجز عن معارضة القرآن ، وأنت تعلم بأن هناك من شعرائنا المتقدمين في الجاهلية ما علمت من التصرف العجيب ، والاقتدار اللطيف ، وهم المُرْمِدُوْنَ في هذا الشأن ، فكيف أبحت لنفسك أن تدعي مثل هذه الدعوى في عجزهم عن مقارعة القرآن ومعارضته والإتيان بمثله ؟! إذا ثبت هذا وكان معلوماً ضرورة للتواتر الذي يصل إلى درجة اليقين في أنهم ظلوا حائرين صامتين لا يحيرون جواباً مع أنه لسانهم الذي به يتخاطبون ، ومع بلوغهم في الفصاحة النهاية التي ليس وراءَها مُتطلع والرتبة التي ليس فوقها مَنْزَع ؟! إذا ثبت هذا ولم يؤثر عنهم إلا الصمت صمت الأموات فمعنى ذلك أَنَّهُم عاجزون . وبالعجز مقرون والحمد لله رب العالمين .

[بل كانوا بين أَمرين : إما أَن يخبروا عن أَنفسهم بالعجز والقصور ، وذلك حين يخلو بعضهم ببعض ، وكان الحال حال تصادق ، وإما أَن يتعلقوا بما لا يتعلق به إلا من أَعوزته الحيلة ومن فعل بالحجة من نسبته إلى السحر تارة ، وإلى أَنه

مأخوذ من فلان وفلان آخر ، يسمون أقواماً مجهولين لا يُعرفون بعلم ، ولا يُظن بهم أن عندهم علماً ليس عند غيرهم ، ثبت أَنهم قد كانوا علموا أَن صورة أولئك الأَوائل صورتهم ، وأَن التقدير فيهم أَنهم كانوا في زمان النبي ﷺ - ثم تُحُدُّوا إلى معارضته - لكانوا في مثل حال هؤلاء الكائنين في زمانه حالُهم] .

يريد أن يقول الإمام الجرجاني رحمه الله : وإذا ثبت بأنهم لم يقولوا بمعارضة القرآن والقدرة عليها ولا رأوا أن يقولوا ذلك ، بل صمتوا صمت العاجز الذي لا يحير جواباً ، فبهت الذي كفر ، وإذا لم يثبت أن تقولوه ولو على سبيل الدفع والتلبيس والتزييف والمشاغبة بالباطل إذا لم يصح شيء من هذا ولم يثبت عنهم ، فهم بين أمرين :

١ - إما أن يخبروا عن أنفسهم بالعجز والقصور وهذا ردُّ فعلٍ سِرّي ، وهو ما كان من نجواهم حين يخلو بعضهم ببعض فقد كانوا يعترفون بالعجز والقصور أمام عظمته وإعجازه وروعة بيانه ، وكانوا يقولون إنَّ له لحلاوة وإن عليه لطلاوة ، وكانوا يجدون له وقعاً يريبهم ويحيرهم ، فلم يتمالكوا أَنْ يعترفوا به نوعاً من الاعتراف ، ولاسيما والحال حالُ تَصَادُق[1] يَصْدُقُ فيه كُلٌّ الآخر فيما يحسه تجاه القرآن الكريم . . .

---

(١) تصادق : تفاعل فيه معنى المشاركة أي يصدق كُلٌّ منهما الآخر . . .

٢ ـ وإما أن يتعلقوا بما لا يتعلق به إلا من أُفْحم وحصرته الأَدلة فهو مأخوذ يبحث عن حيلة ومخرج ، وهذا هو رد الفعل العلني لقريش ، وهو ما ذهبوا إليه من اتهامه بالسحر تارة وإلى أنه يأخذه عن فلان وفلان ﴿ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ﴾ يسمون أقواماً مجهولين لا يُعرفون بعلم ، وهؤلاء الذين عندهم هذا العلم لِمَ لَمْ ينسبوه إلى أنفسهم فيحوزوا هذا الشرف ، وتكون لهم النبوة ؟! بدلاً من نسبته إلى محمد ﷺ إلى نحو ذلك من الأمور التي جماعها الجهل الأحمق والعجز وعناد الحق والذهاب عن الحجة والانقطاع دونها ، وإلا فقد علموا أن صورة أولئك الأوائل صُورتُهم ، فهم نسخة منهم لا يفترقون عنهم وأنهم لو كانوا في زمان النبي ﷺ ، ثم تُحُدُّوا إلى المعارضة ، فلن يزيدوا على حال هؤلاء الكائنين في زمانه من حيث العجز وعدم القدرة والانقطاع دونه ، لأنهم علموا الخصائص والميزات البلاغية التي تميز بها القرآن الكريم عن كلامهم ، ومن قبلهم من شعراء وخطباء في حكمهم ، وكلامهم الذي رفعوا من قدره ، وتَغَنَّوا به وأشادوا ، موجودٌ بين أيدينا نقرأه ونتأمله غدوة وعشياً ، لا يخرج عن كلام البشر الذي يعتوره الضعف والخور ، فهذا امرؤ القيس وهو رأس الطبقة الأولى من شعراء الجاهلية تتبع الإمام الباقلاني[(١)]

---

(١) الإمام الباقلاني / هو الإمام السعيد ناصر السنة وقامع البدعة =

شعره في كتابه « إعجاز القرآن » فإذا هو لا يخرج عن اللين والشراسة ، واللطف والشكاسة ، والتوحش والاستئناس ، والتفاوت والتباعد ، ثم يقول الإمام الباقلاني : « وإذا كنا قد بينا أَن شعر امرىء القيس وهو كبيرُهم الذي يُقِرُّون بتقدمه ، وشيخهم الذي يعترفون بفضله ، وقائدهم الذي يأتمون به ، وإمامهم الذي يرجعون إليه كيف سبيله ، وكيف طريق سقوط منزلته عن منزلة نظم القرآن الكريم ، وأن الذي عارض القرآن بشعر امرىء القيس لأَضَلُّ من حمارِ بَاهله ، وأحمقُ من هَبَنَّقة . . »[1] وإذا كان هذا هكذا فقد انتفى الشكُّ ، وحصل اليقين الذي تسكنُ معه النفس ويطمئن عنده القلب أَنه معجزٌ ناقضٌ للعادة ، وأَنَّه معجزةٌ من المعجزات كقلب العصا حية لموسى عليه السلام وإحياء الموتى لعيسى عليه السلام على أن تلك المعجزات كانت خاصة بأصحابها ، وأَنَّ هذه معجزةٌ للخلق كافة : قريش ومن جاء بعدهم إلى قيامِ الساعة ، وبان

= عماد الدين أبي بكر محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر بن القاسم المعروف بالباقلاني وقد أشاد بالإمام الباقلاني جملة من الفضلاء فقال عنه القاضي عياض : كان الباقلاني شيخ السنة ولسان الأمة . وقال ابن سعدون الفقيه : لقد رضيت سائر الفرق بالباقلاني حكماً ، وقال الصاحب بن عباد عن ثلاثة متعاصرين ابن فورك م ٤٠٦ هـ صِلٌّ مُطْرِق ، والأسفراييني م ٤١٨ هـ نارٌ تحرق ، والباقلاني م ٤٠٣ هـ بَحْرٌ مُغْرِق . .

(١) الشافية في إعجاز القرآن / ١٢٨ .

أَن قد سَعِدَ المؤمنون وَخَسِرَ المبطلون ، والحمد لله رب العالمين على أَن هدانا لدينه ، وأَنار قلوبنا ببرهانه ودليله ، وإياه جل وعز نسأَل التثبيت على ما هدى له ، وإتمام النعمة بإدامة ما خوله ، بفضله ومنِّه . . .

[واعلم أَن ها هنا باباً من التلبيس أَنت تجده يدور في أَنفس قوم من الأَشقياء ، وتراهم يُوْمِئُوْنَ[1] إليه ، ويهمسون به ويستهوون الغِرَّ[2] الغبي بذكره ، وهو قولهم : قد جرت العادةُ بأَن يبقى في الزمان من يفوت أَهله حتى يسلموا له ، وحتى لا يطمع أَحدٌ في مداناته ، وحتى ليقع الإجماعُ فيه أَنه الفردُ الذي لا ينازع . ثم يذكرون امرأَ القيس والشعراءَ الذين قُدِّمُوا على من كان معهم في أَعصارهم ، وربما ذكروا الجاحظ وكل مذكور بأَنه كان أَفضل من كان في عصره . ولهم في هذا الباب خَبْطٌ وتخليط . لا إلى غاية ، وهي نَفْثَةٌ نفثها الشيطان فيهم] .

يريد أن يقول الإمام الجرجاني رحمه الله بأن هناك مصايد وشِبَاك ، يشير إليها أولئك الذين استغواهم الشيطان وغلبت عليهم غشاوة الشقاوة ، يحاولون أن يوقعوا في مصايدهم هذه الغر الغبي فيقولون : بأن العادة المتعارف عليها أنَّه لايزال يظهر في كل زمان الرجل الفَلْتَة الذي يبز أقرانه والذي

---

(١) يُومئون : يشيرون .

(٢) الغِرُّ : الساذج .

لا يضارعه شخص آخر ، وحتى يسلم له أهل ذلك الزمان بأنه الفرد العلم الذي لا يشق له غبار ، ولا ينازعه منازع ، ولا يستشرف أحد ولا يطمع في مقاربته ومداناته لأَنَّهُ الفَحْلُ لا يُجْدَعُ أَنْفُهُ ، فيذكرون من هؤلاء امرأ القيس والنابغة وغيرهم من أولئك الشعراء المشهود لهم بالتقدم ، وعلو الكعب في القريض ، ويذكرون من الكتاب كالجاحظ في العصر العباسي ، وعبد الحميد الكاتب وابن المقفع في العصر الأموي ، وابن العميد في العصر العباسي وهؤلاء أئمة البيان في عصورهم حتى قيل : بدئت الكتابة بعبد الحميد وانتهت بابن العميد . والجاحظ أمير البيان في عصره وشيخُ الكُتَّاب بلا منازع ، وهكذا في كل فن من فنون الحياة يوجد من اللامعين من بزّ أقرانه وشهد له أهل العصر بذلك ، فهم كالنجوم الزاهرة ، هم نماذج لأهل ذلك العصر . . لا يخلو منهم زمانٌ ولا مكان ، هؤلاء القوم الذين استغواهم الشيطان وغلبت عليهم الشقاوة يلجؤون إلى مثل هذه المصايد والأحابيل يلقونها في أوهام السذج والأغبياء ، فيقولون : إن مثل هذه النماذج والفلتات لو تُحُدُّوا إلى نظم القرآن وبلاغته لما عجزوا عنه والإتيان بمثله ، ولا تعسّر عليهم مجاراته ومعارضته أو مداناته ، ولهم في هذا الباب خبط وتخليط وتهويم وتوهيم ، وهذا الذي أتوه ليس عن جهلٍ وإمَّعِيَّةٍ ، وإنما عن قَصْدٍ مُبَيَّتٍ وهذه نفثةٌ من نفثات الشيطان ألقاها في روعهم ، وغفلوا عن دليل الإعجاز في القرآن الكريم وهو أنه

حجة الله سبحانه على خلقه ، أنزله تأييداً لرسوله وتصديقاً له وأنه معجزٌ في بلاغته ونظمه . . . قبل أن يتمكن هذا الدليل على إعجاز القرآن الكريم في أنفسهم تمكناً ثابتاً وَيَقيناً قَاطِعَاً ، نَفَثَ الشيطان في نفوسهم مثل هذه النفثات ، وأدخل فيها مثلَ هذا التخليط والتلبيس والخبط ، قبل أن يستحكموا وجهَ الإعجاز في القرآن الكريم وأنَّه لا يستطيعه بَشَرٌ مهما أوتي من الفصاحة في أي عصرٍ ، ومهما أوتي من اللسن والفصاحة والبيان في أي مصرٍ ، أن يأتي بمثل إعجاز القرآن الكريم ؛ وهذا معنى قول الإمام الجرجاني : [**وإنما أُتوا من سوء تدبيرهم لما يسمعون ، وتسرعهم إلى الاعتراض قبل تمام العلم بالدليل**] .

[**وذلك أن الشرط في المزية الناقضة للعادة ، أن يبلغ الأَمر فيها إلى حيث يبهر ويقهر . حتى تنقطع الأطماع عن المعارضة ، وتخرس الألسن عن دعوى المداناة ، وحتى لا تحدِّث نفسٌ صاحبها بأَن يتحدى ، ولا يجول في خلد أَن الإتيان بمثله يمكن ، وحتى يكون يأسهم منه وإحساسهم بالعجز عنه في بعضه مثل ذلك في كله**] .

يقول الإمام الجرجاني رحمه الله : إنَّ القاعدة المسلمة المتفق عليها في الأمر الناقض للعادة أن يصل إلى حد الإبهار ، هذا هو المحك ، فلنستعرض شعر امرىء القيس وفحولهم على المحك ولنستعرض نثر الجاحظ على المحك ، ولنستعرض بلاغة القرآن على المحك ، فإنه ثبت

على البرهان وصمد أمام هذا الشأن بحيث انقطعت الأطماع دونه ، وخرست الألسنة عن مداناته حتى يكون النظر في بعضه مشعراً بالعجز عن الكل ، فهذا في أعلى درجات البلاغة والبيان ، وتلك هي بلاغة القرآن . . أما امرؤ القيس ومن ضارعه فما من واحدٍ منهم إلا ودخله الخللُ في شعره ، ولم يسلم من كثير من النقدات . .

وهل بلغ امرؤ القيس أَو النابغة ومن لفّ لفهم أن يُفحموا أو أن يسكتوا غيرهم أم الأمر على خلاف ذلك . . فقد نُقِدُوا ؛ وكتبُ الأدب تشهد بذلك . .

[وليت شعري[1] من هذا الذي سلَّم لهم أَنَّه كان في وقت من الأَوقات من بلغ أَمره في المزية وفي العلو على أهل زمانه هذا المبلغ ، وانتهى إلى هذا الحد ! ، إن قيل امرؤ القيس .

---

(١) وعبارة (لَيْتَ شِعْرِي) عِبَارَةٌ مشهورةٌ في الأساليب العربية ، والعبارة في معناها الإجمالي بمعنى (أخبرني أو أخبروني) فهي لتمني العلم بشيء هام له شأن عند السائل ، يريد أن يعلمه مع إحساسه بأنه بعيد المنال ، وهذا البعدُ تشير إليه (ليت) التي هي لتمني المستحيل ، والرغبةُ في العلم يشير إليها لفظ (شِعْرِي) إذ يراد بها الحواس التي تشعر وتحس وهي طريق العلم عادةً . .

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلةً
بجنب الغضا أُزجي القلاص النواجيا

ولأن العبارة (ليت شعري) أصبحت شعاراً وعنواناً لتلك المعاني ، فقد التزم الاستفهام بعدها بحيث لا تجيء بدونه . . .

فقد كان في وقته من يباريه ويماتنه ، بل لا يتحاشى من أَن يدعي الفضل عليه : فقد عرفنا حديث عَلْقَمَة الفحل ، وأَنه لما قال امرؤ القيس ـ وقد تناشدا : أَيُّنا أشعر ؟ قال : أنا غير مكترث ولا مبالٍ ، حتى قال امرؤ القيس : فقل وانعت فرسك وناقتك . وأَقول وأَنعت فرسي وناقتي . فقال علقمةُ : إني فاعلٌ ، والحَكمُ بيني وبينك المرأَة من ورائك ، يعني أم جُنْدَبَ امرأة امرىء القيس . فقال امرؤ القيس :

خَلِيْلَيَّ مُرَّا بي على أُمِّ جُنْدَبِ نُقَضِّ لُبانَاتِ الفؤادِ المُعَذَّبِ

وقال علقمة :

ذهبتِ من الهجرانِ في كل مَذهَبِ
ولم يَكُ حَقّاً كلُّ هذا التجنُّبِ

وتحاكما إلى المرأة ففضلت علقمة] .

وليت شعري من هذا الذي سلَّم لهم أنَّه كان في وقت من الأَوقات من بلغ أمره في المزية كل هذا المبلغ ، وفي العلو على أَهل زمانه كل هذا المبلغ ، فتلك بلاغةُ القرآن وإعجازه الذي لا يتناهى ، هذا امرؤ القيس وقد ضربتم به المثال ، واعتبرتموه النموذج والمثل الأعلى في البيان . امرؤ القيس هذا لم يسلم من النقد ، بل وُجِدَ في عصره من ادعى أنَّه أَشعرُ منه ، وتفصيلُ الخبر أَنَّ علقمةَ ضافَ إمرأ القيس ، وكان له صديقاً ، فتذاكرا القريض وادعاه كُلٌّ منهما على صاحبه ، ولجَّ في ذلك فقالت لهما « أمُّ جُنْدَب » وكانت امرأةً صفيةَ الطبع سليمةَ الذوق : قولا شعراً تصفان فيه الخيل ،

وتذكران الصيد على قافية واحدة ورويٍّ واحد لأنظر أيكما أشعر . فَرَضياً بحكمها وأنشداها على البديهة قصيدتين كبيرتين ؛ تدلان على رُسوخ قَدَمهما في الشعر وامتلاكهما زمام البيان . وأول قصيدة امرىء القيس :

خليليَّ مُرّا بي على أم جُنْدَبِ   لِنَقْضِ لُبَاناتِ الفؤادِ المعذَّبِ

وأول خريدة عَلْقَمَةَ :

ذَهَبْتَ من الهِجرانِ في غير مَذهَبِ
وَلَمْ يكُ حقّاً كُلُّ هذا التجنُّبِ

ولما فَرَغَا من إنْشادِهما قالت أُمُّ جُنْدَبْ لِبَعْلِهَا : علقمةُ أشعرُ منك .

فقال : وهو يكادُ يتميز من الغيظ : وكيف ذاك ؟ قالت : لأنك قُلتَ :

فَلِلسَّوطِ أُلْهُوبٌ وللسَّاق دَرَّةٌ
وَلِلزَّجْرِ منْهُ وَقْعُ أَهْوَجَ مِنْعَبِ(١)

فَجَهَدْتَ فَرسكَ بسوطك ، وَمَرَيْتَهُ بِساقك ، وقال علقمة :

فَادْرَكَهُنَّ ثَانياً من عِنَانِهِ   يَمُرُّ كَمَرِّ الرَّائِحِ الْمُتَحَلِّبِ

فأدرك الطريدة ، وهو ثانٍ من عنان فرسه . لم يضربه

---

(١) أراد إذا حركه بسوطه ألهب الجري جرى شديداً كالتهاب النار ، وإذا ضربه بسوطه دَرَّ الجري أي أسرع ، وإذا زجره وقع الزجر منه موقعه من الأهوج والمنعب الذي يستعين بعنقه في الجري ويمده . .

بسوط ، ولا مراهُ بساق ولا زَجَره . فتربَّدَ وجههُ ، وقال لها : ما هو بأشعرَ مني ، وَلَكِنَّكِ لَهُ وامقٌ (أي مُحِبَّةٌ) وطلقها فَخَلفه عليها عَلْقَمَةُ ، وسُمِّي لذلك (الفحل) ويبدو أَنَّ أُمَّ جُنْدَب كانت صادقةً في حكمها ، صائبة فيه تمام الإصابة ، لم تَحِدْ عن جادة الحق قيد أنملة ، كما وضعت أيدينا على طريق النقد الصحيح بمعيار جميل في قولها « تصفان الخيل ، وتذكران الصيد على قافية واحدة وروي واحد » وهذه تمثل وحدة الموضوع ، ووحدة القافية ، حتى يصدر الحكم في إطار واحد من النزاهة والصدق الفني ، فيا لها من امرأة صفية الطبع حقاً . .

وهذا دليل روائي ساقه الإمام الجرجاني يؤكد انقطاع امرىء القيس وأَنَّ شعره غير مُفْحِمٍ ولا مُسْكِتٍ حتى يقارعَ القرآن أو يصل إلى حد التحدي ، بل إنَّ هناك من تحداه ، بل ادعى أَنَّهُ أَشْعَرُ منه وهو علقمةُ بن عبدة الفحل[(١)] . .

[وجرى بين امرىء القيس والحارث اليشكري في تتميمه أنصاف الأَبيات التي أَولها :

---

(١) انظر ديوان علقمة . .
وعلقمة هو ابن عبدة بن النعمان بن ربيعة ، ولقب بالفحل لأنه بزّ امرأ القيس وخلفه على (طلّته) زوجته بعد محاكمتها كما قدمنا سابقاً . .
والقصة وردت في ديوان امرىء القيس والموشح للمرزباني وغيرها من كتب الأدب . .

أحارِ أريك برقاً هبَّ وهناً   كنارِ مجوس تستَعِرُ استِعَارا

ما هو مشهور . حتى قال امرؤ القيس : لا أُماتنك بعد هذا] .

ونحو هذا معارضة الحارث بن التوأَم اليشكري في إجازة أَبياتٍ : فعن محمد بن سلام عن أبي عبيدة عن أبي عمرو بن العلاء قال : كان امرؤ القيس ينازع كل من قيل إنَّه يقول شعراً فنازع الحارث بن التوأَم اليشكري(١) فقال امرؤ القيس :

أَحَارِ تَرَى بُرَيْقَاً هَبَّ وَهْنَاً

فقال الحارث :

كنار مَجُوسَ تَسْتَعِرُ استِعَارا

---

(١) واسم الشاعر في العمدة : الحارث بن قتادة ، وكنيته : التوأم اليشكري ، وهو غير الحارث بن حلزة اليشكري صاحب المعلقة ؛ وكان امرؤ القيس مُعِنّاً ، أي يدخل فيما لا يعنيه ، مدلاً في الشعر ، يرى أنَّه قد امتلك ناصيته ، قيل : إنه لقي الحارث اليشكري فقال له : إن كنت شاعراً « فَمَلِّط » أنصاف ما أقول وأجزها فقال : امرؤ القيس :

أحار ترى بُرَيقاً هب وهناً

والوهن : الساعة بعد نصف الليل ، وصغر بُرَيْقاً للتكثير .

قال الحارث :

كَنَارِ مَجُوسَ تَسْتَعِرُ اسْتِعَارَا

تستعر ، أي : تشتعل .

وملط الشاعر : قال نصف بيت وأتمه آخر . . .

قال امرؤ القيس :

أرِقْتُ له ونام أَبُو شُريحِ

أجاب الحارث :

إذا ما قُلْتُ قد هَدَأَ اسْتَطَارَا

فقال امرؤ القيس :

فمَرَّ بِجَانِبِ العَبَلاتِ مِنهُ

العبلات : اسم موضع ، والعبلات قبيلة من قريش .

فقال الحارث :

وبَاتَ يَحْتَفِرُ الأَكَمَ احْتِفَارَا

فقال امرؤ القيس :

فلَمْ يَتْرُكْ بِذَاتِ السِّرِّ ظَبْياً

ذات السر : اسم موضع . وفي رواية : ببطن السيّ ظبياً ، والسيّ : الفلاة .

فقال الحارث :

ولَمْ يَتْرُكْ بِعَرْصَتِهَا حِمَارَا

العرصة ، وفي رواية : الجَهْلَةُ ، وهي ناحية الجبل والوادي وأول ما يستقبلك منه . .

فقال امرؤ القيس :

كأَنَّ هَزِيزَهُ بِوَرَاءِ غَيْبٍ

هزيزه : صوته ، والضمير عائد إلى الرعد وإن لم يذكر .

فقال الحارث :

عشَارٌ وُلَّه لاَقَتْ عِشَارَا

العِشَار : النوق ، والولَّه : التي فقدت أولادها .

فقال امرؤ القيس :

فلَمّا أَنْ عَلاَ شَرَجى أُضَاخٍ

شرجى أُضاخ : اسم موضع والشرج محركة منفسح الوادي .

فقال الحارث :

وهَتْ أَعْجَازُ رَيِّقِهِ فَحَارَا[1]

وهت : استرخت ، الرّيق : أول المطر ، حار : ثبت وتوقف .

قال امرؤ القيس :

فلم تر مثلنا ملكاً هُماماً

قال الحارث :

ولم تر مثل هذا الجار جارا

فلما رآه امرؤ القيس وقد ماتنه[2]، ولم يكن أَحَدٌ يجرؤ

---

(١) وفي رواية : فلما أن دنا لقفا أُضاخ ، وفي رواية : كنفي أُضاخ ، وفي رواية : أُضاح بالحاء المهملة . أعجاز ريقه فحارا . وفي رواية بالخاء المعجمة فخارا .

(٢) والمماتنة : أنْ يقول أَحَدُ الشاعرين بيتاً ويقول الآخرُ بيتاً كأنهما =

يماتنه آلى ألَا ينازع الشعر بعده أحداً . .

وهذه مباراة عجيبة ، ومعارضة تامة مستوفاة فصلاً فصلاً ، ومصراعاً مصراعاً ، وللحارث فيها من التقدم ما ليس لامرىء القيس ، لأنّ امرأ القيس مبتدىء ، والمبتدىء مجاله في التحرك أوسع وله سِعةٌ في التَّصَرُّف واختيار المعاني التي يريد ، بخلاف الذي يماتنه فإنَّ مجاله يضيق ، فإن تساويا في الحسن ، فإنَّ المماتن يَسْبِقُ المبتدىء لأَنَّ له فضلَ سَلْبِ الاختيارِ ، فهو مقصور القيد ممنوعٌ من التصرف إلا في الجهة التي هو بإزائها ، ومع ذلك ماتنه ، ولأَنَّ المبتدىء قد يُعَرِّجُ بصاحبِهِ على المواطن والمعاني التي يجيدها ، والمماتنُ رَهْنُ إشارتِهِ وقيده ، ولذلك أَبَرَّ الحارثُ على امرىء القيس لِمَا جَاءَ به من حُسْنِ التشبيهِ والتمثيل ، والذي خَلاَ منه كلامُ امرىء القيس على الرغم من كونه المبتدىء ، ولأجلِ ذلك آلى امرؤ القيس ألاّ يماتنَ شاعراً بعده أبداً . . .

[ثم وجدنا الأخبار تدل على خلافٍ لم يزل بين الناس فيه وفي غيره أَيٌّ أشعر ؟ وعلى أَيٍّ لم يستقر الأمر في تقديمه قراراً يرفع الشك] .

بعد أن قدّم لنا الإمام الجرجاني رحمه الله : دليل الرواية

= يمتدان إلى غاية . . فلما رأى امرؤ القيس أن التوأم قد ماتنه ، ولم يكن في ذلك الزمن من يماتنه ، أي : يقاربه ويقاويه أو يطاوله ، آلى ألا ينازع الشعرَ أحداً إلى آخرِ الدهر . . .

على انقطاع امرىء القيس ، مع كونهم لهجوا بتقديمه ، ورأوا بأنه الفحلُ الذي لا يقارع ، وإن القرآن لو نزل عليه لعارضه ، فإن الروايات تدل على خلافه ، ويكفي ما جرى له مع علقمة الفحل من نقد . . جاء الإمام الجرجاني بدليل استقرائي : فقد دلت الأخبارُ على خلافٍ قائم بين الناس فيه وفي غيرهِ من الشعراء أَيهم أشعر ؟ وعلى هذا فالأمرُ في دائرة الشك والحكم له بالأسبقية والتقدم غير مسلم ، وكونه قد تميز على غيره في زمانه غيرُ مسلمٍ أيضاً ، وإنما هو كغيره من الشعراء أحسن فيما أحسن وأساء فيما أساء ، ولم يحكم له بالتميز المطلق على شعراء عصره قط . . [**وعلى أيٍّ لم يستقر الأمرُ في تقديمه قراراً يرفع الشك . .**] .

وها هو الإمام يتحدث عن الدليل الاستقرائي فيقول : [**رووا أَن أمير المؤمنين عليّاً . رضوان الله عليه . كان يُفْطِرُ النَّاسَ في شَهر رمضان ، فإذا فرغ من العَشَاءِ تكلم فأَقل وأَوجز فأَبلغ ، قال : فاختصم الناسُ ليلةً في أَشعرِ الناس ، حتى ارتفعت أَصواتُهم ، فقال رضوان الله عليه لأبي الأَسود الدؤلي : قل يا أبا الأَسود . وكان يتعصبُ لأَبي دؤاد . فقال : أشعرهم الذي يقول :**

ولقد أَغتَدِي يدافعُ رُكْني أَحْـوَذِيٌّ ذُو مَيْعَـةٍ إضـريـجُ
مُخْلِـطٌ مُـزْبِـدٌ مِكَـرٌّ مِفَـرٌّ منفحٌ مطرحٌ سبُوحٌ خروجُ
سَلْهَبٌ شرحبٌ كأَنَّ رِماحاً حملتـه وفـي السَّـراةِ دَمُـوجُ

فأَقبل أميرُ المؤمنين ـ رضوان الله عليه ـ على الناس فقال :

كُلُّ شُعَرَائِكُمْ محسنٌ ، ولو جمعهم زمانٌ واحدٌ ، وغايةٌ واحدة ، ومذهبٌ واحدٌ في القول لعلمنا أيهم أَسبق إلى ذلك ، وكلهم قد أَصابَ الذي أَراد وأَحسن فيه ، وإن يكن أَحدهم أفضل فالذي لم يقل رغبة ولا رهبة ؛ امرؤ القيس بن حُجْر كان أَصحهم بادرة وأَجودهم نادرة][1] .

جاء الإمام الجرجاني بكلام أمير المؤمنين سيدنا علي بن أبي طالب كرم الله وجهه رداً على من زعم أن امرأ القيس قد

---

(١) الأغاني / م ١٧ .
وأَبو دُؤاد هو جُوَيرية بن الحجَّاج الإياديّ .
وكانت إياد تفخر على العرب تقول : مِنَّا أَجودُ النَّاس كعبُ بن مامة ، ومنّا أَشعرُ النَّاس أَبو دُؤاد ، ومنَّا أَنكح الناس ابن أَلْغَز . .
وأَبو دُؤاد من وصافي الخيل المشهورين .
وقوله :

ولقد أَغتَدِي يدافعُ رُكْني ... أَحْوَذِيٌّ ذُو مَيْعَةٍ إضريجُ
مخلطٌ مزبِدٌ مكرٌّ مفرٌّ ... منفحٌ مطرحٌ سبوحٌ خروجُ
سلْهَبٌ شرحبٌ كأَنَّ رِماحاً ... حملته وفي السَّراةِ دَمُوجُ

أَحْوَذِيٌّ : حَسَنُ السوقِ ، مَيْعَةٌ : أنشطُ جري الفرس ، إضريجٌ : شديدُ العدو مخلطٌ مزبد : أي يأتي بفنون من الجري ، منفحٌ : ينفح بقوائمه في العدو ويدفع ، مطرحٌ : سريعٌ سبوحٌ خروج : يخرج من بين الخيل سابقاً ، السلهبُ والشرحبُ : الفرسُ الطويل ، السراةُ : الظهرُ ، دَمُوجُ : متداخلٌ بَعْضُهُ في بعضٍ في استحكام . .

الأغاني / م١٧

تميز على شعراء عصره تميزاً يجعله ليس موضعَ نقدٍ وإن كلامه قد سُلِّمَ له بأنه أشعرُ شعراءِ عصره ، وهذا غيرُ مُسَلّمٍ ، والدليلُ الخلافُ الذي وقع على مائدةِ أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، إذ لو كان امرؤ القيس أشعرَ الشعراءِ لما حَصَلَ الخلافُ في ذلك . .

ثم يضعُ أميرُ المؤمنين قاعدةً وأصلاً من أصولِ النقد في الموازنات ، أنّه لا تصح الموازنة بين شاعرٍ في عصرٍ وشاعرٍ في عصرٍ آخر ، بل ينبغي في قواعد الموازنة أن يجمعهما زمانٌ واحد ، ومعنى واحد ، وطريقٌ من طرق القول واحد . . إذا تم هذا علمنا أيهم أسبق . .

ثم يجاريهم في كلامهم على ضربٍ من المجاملة ، هذا وإن كنتُ غيرَ موافقٍ لكم على اختياركم المبنى على غير قاعدة ، ووفق رأيكم في الموازنة غير المبني على أصول وقواعد فإنه يكون امرؤ القيس[1] « الذي لم يقل عن رغبةٍ أو

---

(١) وقد قال العلماءُ بالشعر : إنَّ امرأ القيس لم يتقدم الشعراءَ ، لأنه قال ما لم يقولوا ، ولكنه سبق إلى أشياء فاستحسنها الشعراءُ واتبعوه فيها ، لأنه كما قيل أولُ من لطَّف المعاني ، واستوقف على الطلول ، ووصف النساء بالظباء والمها والبيض ، وشبه الخيل بالقصبان والعصي ، وفرَّقَ بين النسيبِ وما سواه من القصيد ، وقرب مآخذ الكلام ، فقيد الأوابد ، وأجاد الاستعارة والتشبيه] ولهذا استحق أن يصفه الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه « بأنه أحسنهم نادرة » يقع على الأبيات والمعاني =

= النوادر الشوارد ، وأسبقهم بادرة » فهو يبندر إلى الأشياء يخترعها وأبكار المعاني يفترعها ، كقوله يصفُ فرسه :

وقد أغتدي والطيرُ في وكناتِها   بِمُنْجَرِدٍ قَيْدِ الأوابِدِ هَيْكَلِ

ومعنى قوله : « قيد الأوابد » فقد جعله ـ أي فرسه ـ لسرعة إدراكه الصيد كالقيد لها لأنها لا يمكنها الفوت منه ، كما أن المقيد غير متمكن من الفوت والهرب .

« ولم يقل عن رغبة أو رهبة » فليس هو من المستجدين المتكسبين بشعرهم « فهو ملك وخدن ملك » فإن قال قال عن قريحة .

ولم يتقدم امرؤ القيس إلا بحلاوة الكلام وطلاوته مع البعد عن السخف والركاكة . .

ولذا قال أمير المؤمنين سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه للعباس بن عبد المطلب رضي الله عنه حين سأله عن الشعراء : « امرؤ القيس سابقهم خَسَفَ لهم عَيْنَ الشِّعْرِ ، فافتقر عَنْ مَعَانٍ عوْرٍ أَصَحَّ بَصَرٍ » يعني أنَّ امرأ القيس من اليمن ، وأن اليمن ليست لهم فصاحة نزار فجعل من معانيهم العور ما فَتَحَ عنها امرؤ القيس أَصَحَّ بَصَرٍ .

قول سيدنا عمر (خسف لهم عينَ الشعر) من الخسف وهي البئر التي حُفِرَتْ من حجارة فخرج منها ماء كثير ، وقوله (افتقر عن معان) افتقر بمعنى فتح وهو من الفقير وهو فم القناة وقد رُوي عن النبي ﷺ في امرىء القيس « أنَّه أَشعرُ الشعراء وقائدهم إلى النار » يعني شعراء الجاهلية والمشركين . . . ولا يقود قوماً إلا أَميرهم . . =

رهبة » وهو يشير هنا إلى نظرية « الفن للفن » وهي فكرةٌ غيرُ مطروقةٍ كثيراً في النقد القديم .

[وعن ابن عباس أنّه سأل الحطيئة : مَنْ أَشعرُ الناس في الماضين والباقين ؟ فقال إذن من الماضين فهو الذي يقول :

ومن يجعلِ المعروفَ من دُونِ عِرْضِهِ
يفـرهُ ومـن لا يتَّـقِ الشَّتْـم يُشْتَـم

وما الذي يقول :

ولَسْـتَ بِمُسْتَبْـقٍ أَخـاً لا تَلُمُّـه
علـى شعـثٍ أَيُّ الـرجـال المهـذَّبُ

بدون ذلك ، ولكن الضراعة أَفسدته كما أَفسدت جرولاً - يعني نفسه - والله يا ابن عباس لولا الجشع والطمع لكنتُ أَشعرَ الماضين ، فأَما الباقون فلا أَشك أَني أَشعرهم][1] .

= والحديث فيه نظر وتكلم فيه وضُعِّفَ

العمدة في صناعة الشعر ونقده / لابن رشيق / ط ١ / ص ٥٩ / ٦٠ .

« خسف لهم عين الشعر : من قولهم خسف البنا إذا حفرها من حجارة فنبعت بماءٍ كثير يريد أنّه ذلل لهم الطريق إليه ، وبصرهم بمعانيه ، وفنن أنواعه وقصده ، فاحتذى الشعراء على مثاله ، فاستعار العين لذلك » الشعر والشعراء / ط ٣ / ص ١٣٣ .

(١) الشافية في إعجاز القرآن / للإمام الجرجاني / ١٣١ .
والحطيئة / هو جَرْوَلُ بن أَوْسٍ من بني قُطَيْعَةَ بن عَبْسٍ ، وَلُقِّبَ الحطيئة لقصره وقربه من الأرض ، يكنى أبا مُلَيكة ، وكان راوية =

. . . .

= زهير ، وكان جشعاً ملحفاً دنيء النفس كثير الشر قليلَ الخير بخيلاً قبيحَ المنظر ، رثَّ الهيئة ، مغموز النسب ، وعن ابن سلام وأبي عبيدة : كان الحطيئة متينَ الشعر ، شرود القافية ، ما تشاء أن تطعن شعرَ شاعرٍ إلا وجدت فيه مطعناً ، وما أقل ما تجد ذلك في شعره . . .

الشعر والشعراء / ٣٢٨

ومَنْ يجعلِ المعروفَ من دونِ عِرْضِهِ
يفِـرْهُ وَمَـن لا يتَّـقِ الشَّتْـمَ يُشْتَـمِ

وشرح البيت : أَنَّ من بذل معروفه صان عرضه ، ومن بخل بمعروفه عَرَّضَ عِرْضَهُ للذم والشتم .

ولَسْـتَ بِمُسْتَبْـقٍ أَخـاً لا تَلُمُّـه
علـى شَعَـثٍ أيُّ الـرِّجـالِ المُهَـذَّبُ ؟

يقول : إذا لم تصاحب أخاك على ما فيه من عيب ، لم يبق لك صديق إذ لا تجد المهذب الخالص من كل عيب . . .

استبقاه : عفا عن زلله فبقيت مودته ،تلمه : تجمعه وتصلحه ، الشعث : الفساد والتفرق .

ورواية الأغاني : كان الحطيئة عند سعيد بن العاص فتذاكروا الشُّعراءَ وفَضَّلوا بعضهم على بعض وهو ساكت ، فقال له يا أبا مُليكـة مـا تقـول ؟ فقـال : مـا ذكـرتُـم والله أشعـرَ الشعـراء ، ولا أَنشدتم أَجودَ الشِّعرِ فقالوا : فمن أَشعرُ النَّاسِ ؟ فقال الذي يقول :

لا أَعدُّ الإقْتَارَ عُدْماً ولكن فَقْـدُ مَـنْ قَـدْ رُزِئتُـه الإعْـدَامُ

والشعر لأبي دُؤاد الإياديّ ، قالوا ثم من ؟ قال ثم عَبيد بن

وعندما سأل ابن عباس رضي الله عنه الحطيئة عن أشعر الماضين أَجاب زهير بن أبي سُلمى حيث يقول :

ومن يجعل المعروف من دون عرضه
يفِـره ومـن لا يَتَّـق الشتـم يشتـم

وأيضاً النابغة فهو لا يَقِلُّ عَنْهُ صَوْلَةً حيث يقول :

ولست بمستبق أخاً لا تلُمُّه على شعث أيُّ الرجال المهذبُ

ولكن الضراعة : أي التكسب والاستجداء بشعره قد أفسدته كما أفسدت جرولاً يعني نفسه ، وهذه أحكام مزاجية لا تخلو من مبالغة ولا تستند إلى مقياس نقدي يحكمها وإنما هي آراء تساق ما بين حين وآخر ، ثم يستمرىء لنفسه أن يكون أَشعر الآخرين ، فيقسم : والله يا ابن عباس لولا الجشع والطمع لكنت أشعر الماضين ، فأما الباقون فلا أشك أني أشعرهم ولا يخفى علينا حال الحطيئة وإعجابه بنفسه حتى يحاول أن يضع نفسه أشعر الماضين والباقين وهو في هذا يبالغ ويكذب ، ولكن ابن عباس رضي الله عنه كما تشير رواية العمدة يرد عليه وفي ضربٍ من المجاملة رقيق : « كذلك أنت يا أبا مُليكة » .

[وقال : كان الأوائل لا يفضلون على زهيرٍ أحداً في الشعر ويقولون : قد ظلمه حقه من جعله كالنابغة . قالوا :

= الأَبرص قالوا ثم من ؟ قال : كفاكم والله بي إذا أَخذتني رغبةٌ أَو رهبةٌ ، ثم عَوَيْتُ في إثْرِ القوافي عُواءَ الفَصيلِ في إثرِ أُمِّه . . .

وعامة أهل الحجاز على ذلك . وعن ابن عباس أَنَّه قال : سامرت عمر بن الخطاب ـ رضوان الله عليه ـ ذات ليلة فقال : أَنْشِدْني لشاعرِ الشعراءِ . فقلتُ ومن شاعرُ الشعراء ؟ قال زهيرٌ . قلت يا أميرَ المؤمنين ، وَلِمَ كان شاعرَ الشعراء قال : لأنه لا يتبع وَحْشِيَّ الكلامِ في شعره ، ولا يُعَاظِلُ بين القول] .

والذي أتت به الرواية عن يونس بن حبيب النحوي أن علماء البصرة كانوا يقدمون امرأ القيس ، وأن أهل الكوفة كانوا يقدمون الأعشى ، وأن أهل الحجاز والبادية كانوا يقدمون زهيراً والنابغة ، وكان أهل العالية لا يعدلون بالنابغة أحداً ، كما أن أهل الحجاز لا يعدلون بزهير أحداً[١] . . .

وإذا كان الأوائل لا يفضلون على زهير أَحداً في الشعر ، فإن شعره لم يسلم من النقد ، فقد أنكروا عليه قوله :

حيِّ الديارَ التي لم يعفها القدمُ   بلى وغيّرها الأرواح والدِّيمُ

من جهة التناقض ، لأَنه نَفَى في أولِ البيتِ تَغَيُّرَ الدِّيَار بقدم عهدها ، ثُمَّ أَوْجَبَ ذلك في آخره . .

وإذا كانوا يقولون قد ظلمه حقه من جعله كالنابغة ، فقد سأل رجلٌ عمرو بن العلاء : النابغة أشعرُ أم زهير ؟ فقال : « ما يصلح زهيرٌ أَنْ يكون أجيراً للنابغة »[٢] .

---

(١) العمدة ج ١/ ص ٦٢ .

(٢) الموشح / ص ٤٣ / الطبعة الثانية في مآخذ العلماء على الشعراء =

على أن النابغة لم يسلم شعرهُ من النقد ، قال أبو عمرو بن العلاء ، دخل النابغة المدينة فقالوا له قد أَقْوَيْتَ في شعرك[1] ، وأفهموه فلم يفهم ، حتى جاؤوه بقَينةٍ فجعلت تغنيه « أمن آل مية » .

أمن آل مية رائح أو مغتد عجلان ذا زاد وغير مزودِ
زعم البوارح أن رحلتنا غدا وبذاك خبرنا الغراب الأسودُ

فمدت المغنية الدال في البيت الأول سخفوضة ، وامتد بها الصوت منخفضاً لِتُبَيِّنَ الياءَ في (مزوّدي ومغتدي) ثم غَنَّت البيتَ الآخر فبينت الضمة في قوله (الأسودُ) ففطن النابغةُ لذلك فغيره وقال :

أمن آل مية رائح أو مغتد عجلان ذا زاد وغير مزودِ
زعم البوارح أن رحلتنا غدا وبذاك تنعاب الغراب الأسودِ

وكان بعد ذلك يقول : « دخلتُ يثربَ وفي شعري شيءٌ ، وخرجتُ وأنا أشعرُ الناس » هذا والنابغة كان من الحكام الذين يحتكم إليهم الشعراء والخطباء في سوق عكاظ ، وكانت لعقلية الحكام القدرةُ على تمييز الرديء من الجيد من الشعر ، وقد وقع فيما وقع فيه ، ولم يسلم شعره من الخلل . . . .

= للمرزباني .

(١) الموشح / ص ٣٧ .
والإقواء : اختلاف حركة الروي فتكون في بيت ضمة ، وفي آخر كسرة .

ويروى أن النابغة[1] كان يقول : إن في شعري عَاهَةً ما أَقِفُ عليها ، وكانت هذه العاهةُ (الإقْوَاءُ) ، فلما قَدِمَ المدينة هابوه أن يقولوا له : أَنَّه يُقْوِي فدعوا قَيْنَةً وأمروها أن تغني في شعره ففعلت فلما سمع قوله : وَاتَّقَتْنَا بَالْيَدِ ، ويكادُ من اللطافة (يُعْقَدُ) تبَيَّنَ لَهُ لمَّا مَدَّت (باليدِ) فصارت الكسرةُ (يَاءً) ومدت (يُعْقَدُ) فصارت الضمةُ واواً فَفَطِنَ فغيره ، وجعله : (عَنَمٌ عَلَى أَغْصَانِهِ لَمْ يُعْقَدِ) وكان يقول : وردتُ يثرب وفي شعري بعضُ العاهةِ ، فَصَدَرْتُ عنها وأنا أشعرُ النّاس) .

والبيتان هما :

سَقَطَ النَّصِيفُ ولم تُرِدْ إسْقَاطَهُ فتنــاوَلَتْــهُ واتّقَتْنَــا بــاليَــدِ
بِمُخَضَّبٍ رَخْصٍ كَأَنَّ بَنَانَه عَنَمٌ يَكَادُ مِن اللَّطَافَةِ يُعْقَدُ

والنصيفُ : كُلُّ ما غطَّى الرأسَ من خمار ونحوه ، والبَنَانُ : الأَصابعُ ، والعَنَمُ : شَجَرٌ لَيِّنُ الأغصان لطيفها ، الواحدة عَنَمَةٌ ، يريد أن يقول : اتقتنا بكفٍّ يكاد بنانُها يُعْقَدُ من لطافته ونعومته ، وفي البيت إقواء وهو اختلافُ حركةِ الروي بين الكسرة والضمة فعدَّلَهُ فقال :

بِمُخَضَّبٍ رَخْصٍ كأَنّ بنانَهُ عَنَمٌ على أغصانه لم يعقدِ

---

(١) والنابغة : شاعر مطبوع ومصور بارع ، وهو فارس حلبة الاعتذار ، وقد حظي عند أَبي قابوس النعمان بن المنذر ملك الحيرة فقربه ، وجعله في حاشيته ، وهو أول شاعر تكسب بشعره . . .

وبذلك استوى الروي على الكسر في أبياتِ القصيدةِ جمعاء . .

[وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنّه قال : سَامَرْتُ عمرَ بن الخطابِ ـ رضوان الله عليه ـ ذاتَ لَيْلَةٍ فقال : أَنْشِدْنِي لشاعرِ الشعراءِ . فقلتُ ومَنْ شَاعِرُ الشُّعَرَاءِ ؟ قال : زهير . قلت : يا أمير المؤمنين ، وَلِمَ كان شاعرَ الشعراء ؟ قال : لأَنه لا يتبع وحشي الكلام في شعره ، ولا يعاظل بين القول] . وفي رواية (ولا يَمْدَحُ الرَّجُلَ إلا بما فيه) . وهذه إشادةٌ من أمير المؤمنين سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وإشارةٌ إلى ما ينبغي تَوَخِّيْه في قولِ الشعر من الصدقِ وعدمِ المبالغة الممقوتة التي تُفْسِدُ الشِّعْرَ وَتَذْهَبُ بمائه وروائه ، ولهجةُ الصدق دائماً تهدي إلى الجمالِ الفني ، ثم البعد عن المعاظلة[1] والغرابة وحوشي الكلام . . وذلك هو مقياسُ الحذق في الصنعةِ وإتقانها . .

وقد كان زهيرٌ من أَحْصَفِهِمْ شعراً ، وأَبعدهم من سَخَفْ ، وأَجْمَعُهم لكثير من المعاني في قليل من المنطق ، وأَشدهم مبالغة في المدح » . . . العمدة .

---

(١) المُعَاظَلَةُ : كُلُّ شَيءٍ رَكبَ شيئاً فقد عَاظَلَه ، والمعنى أَنَّه لم يُعَقِّدِ الكلامَ ، ولم يتكلم بالرجيعِ من القول .
وَحُوْشِيُّ الكلامِ ووحشيه : بمعنى غريبه الذي لم يَسْتَأْنِسْ فهو نافرٌ غامض .

[ورُوي عن أَبي عبيدة أَنَّه قال : أَشعرُ الناسِ ثلاثة ، امرؤ القيس بن حُجْر وزهيرُ بن أَبي سُلمى ، والنابغةُ الذبياني ، ثم اختلفوا فيهم ، فَزَوَّرَتِ اليَمَانِيَّةُ تقديماً لصاحبهم أَخباراً رفعوها إلى رسول الله ﷺ] .

فرواية أبي عبيدة تثبت تقدم الثلاثةِ على سائرِ الشعراء امرؤ القيس ، والنابغة ، وزهير وإنما الاختلاف في تقديم أَحدهم على صاحبيه ، فزورت اليمانيّة تقديماً لصاحبهم ـ والمراد امرؤ القيس لأنّه من اليمن ـ ، أخباراً رفعوها إلى رسول الله ﷺ ولا أعلم شيئاً ثبت عن النبي ﷺ في شأنه إلا أَنَّهُ حَامِلُ لواءِ الشعراءِ إلى النار ، فعن أَبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « امرؤ القيس صاحبُ لواءِ الشعراءِ إلى النَّار »(١) وفي رواية : « ذاك رجلٌ مذكورٌ في الدنيا شريفٌ فيها ، مَنْسِيٌّ في الآخرةِ ، خَامَلٌ فيها ، يجيءُ يومَ القيامةِ معه لوَاءُ الشعراءِ إلى النّار » رواه الطبراني ، فأين ما زورته اليمانيّةُ ؟

[ورُوي عن يحيى بن سليمان الكاتب أَنّه قال : بعثني المنصور إلى حَمَّادٍ الراوية أَسأَلُهُ عن أَشعرِ الناس ، فَأَتَيْتُهُ وَقُلْتُ : إن أميرَ المؤمنين يسأَلُكَ عن أَشعرِ النّاسِ . فقال : ذاك الأَعشى صَنَّاجُهَا] .

وهذه الروايةُ وغيرها مما تقدم تدل على أَنَّ الخلافَ

---

(١) مسند الإمام أحمد / الطبعة الثانية / المجلد الثاني / صفحة (٢٢٨) / قال ابن حجر في لسان الميزان : وهو خبرٌ باطلٌ .

لايزال قائماً بين النَّاسِ في امرىء القيس وفي غيره كزهيرٍ والنابغة والأعشى[1] أيهم أَشعرُ ، ولم يثبت التسليمُ بتميز أَحدهم التميز المطلق ، وليس أَحَدٌ مُسَلَّماً له بالأَسبقية ، بل كُلُّ واحدٍ تكلموا فيه ، وَكُلٌّ قد دَخَلَ شِعْرَهُ الخَلَلُ ، وما منهم من ثَبَتَ على المحك وفي هذا أَبلغُ الرَّدِ على الطاعنين في إعجاز القرآن ، واعتراضهم على القرآن الكريم وأَنه غيرُ مُعْجِزٍ ، وأَنَّهُ بالإمكانِ مُجارَاتُهُ ، وأَنَّهُ لو نَزَلَ على هؤلاءِ الشُّعَرَاءِ كامرىء القيس وأضرابه وكانوا موجودين وقتَ نزولِ القرآنِ الكريم ، لكان بالإمكان معارضته ، فالردّ على هذا الاعتراض اقتضى من المؤلف الإمام عبد القاهر الجرجاني رحمه الله ، وَمن غَيْرِهِ ممن سبقوه الحديثَ عن بعض الجوانبِ النقدية في الموازنة لإبطال هذه الدعوى وقد لمسنا هذا بوضوح في قصة الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه وكيف اختصم الناسُ في أشعر الشعراء ، حتى ارتفعت أَصواتهم ، كما لمسناه في حديث ابن عباس رضي الله عنهما مع الحطيئة ، وفي حديث أمير المؤمنين سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه مع ابن عباس في شاعرِ الشعراء ، إلى

---

(١) وإنما سُمِّي الأعشى صنَّاجةُ العرب لأنَّه أولُ من ذكر الصَّنْجَ في شعره :

ومُسْتَجِيباً تخالُ الصَّنْجَ يَسْمَعُهُ   إذا تُرَجِّعُ فيه القَيْنَةُ الفُضُلُ

قال : ويقال : بل سُمِّيَ صنَّاجةً لقوة طبعه ، وحلية شعره يُخَيِّلُ إليك إذا أَنْشَدْتَهُ أنَّ آخرَ يُنْشِدُ معك . . .

غير ذلك من جوانب نقدية سبق الحديثُ عنها . . . يقول الإمام الباقلاني رحمه الله :

(وأنت تجد للمتقدم معنى قد طَمَسَهُ المتأخرُ بما أَبرَّ عليه فيه ، وتجدُ للمتأخر معنى قد أَغفله المتقدم ، وتجدُ مَعْنىً قد تَوَافَدا عليه ، وتَوَافَيا إليه ، فهما فيه شريكا عنان ، وكأنهما فيه رضيعا لَبَان ، والله يُؤْتي فَضْلَه مَن يشاء .

فأما نَهْجُ القرآنِ ونظمُهُ ، وتأليفه ورَصفُهُ ، فإنَّ العُقُوْلَ تَتِيْهُ في جِهَتِهْ ، وَتَحَارُ في بَحْرِه ، وَتَضِلُّ دُوْنَ وَصْفِهْ) إعجاز القرآن / للباقلاني / ط ٣ ص ١٨٣ .

[فقد علمنا أن امرأ القيس كان أشعرهم عندهم ، وأن تفضيلهم غيره عليه إنما كان على سبيل المبالغة ، وعلى جهة الاستحسان للشيء يتمثل به في الوقت ، ويقع في النفس وما أشبه ذلك من الأسباب التي يعطى بها الشاعر أكثر مما يستحق] .

لايزال الشيخُ الجرجاني رحمه الله يسوقُ المقدمات للوصول إلى النتيجة التي من أجلها عقد هذا الفصل وغيره وهو قولُ أولئك المغرضين المرجفين أَنّه في كُلِّ زمانٍ يَبْرُزُ هناك الرجلُ الفَلْتَةُ المُمَيَّزُ الذي لا يُجارَى ولا يُبارى ولا يُدَانى ، وأن امرأ القيس كان في عصرِه النموذجَ والمثالَ وقد اتجهت إليه الأنظارُ ، وأَنّه مُرَشَّحٌ لو نَزَلَ القرآنُ في عصره أَنْ يُعارضه ويأتي على مثاله ، وأَنَّ العربَ غيرُ المعاصرين لنزولِ القرآنِ الكريمِ كان بإمكانهم مجاراته ومباراته لو نَزَلَ

عليهم ، لأنّهم أَفصحُ وأقوى بياناً ، الإمام الجرجاني تركيزه كُلُّهُ يَدُوْرُ حَوْلَ هذه المسألة وهو يريدُ أَنْ يُثْبتَ عَدَمَ القدرةِ لهؤلاء على معارضةِ القرآن ومن ثَمَّ هو يمهدُ ويسوقُ الأدلةَ لذلك ، فيقول : نحن علمنا بأن امرأ القيس قد نال حظوة لديهم واعتبروه الأساس الذي يحتكم إليه في فن الشعر وأنه رأس شعراء الطبقة الأولى ، وقد انطبقت عليه شروط الأولوية والتقدم فهو النموذج والمثال والفحلُ لا يُقْرَعُ أَنْفُهُ ، وهم إنْ فَضَّلُوا غيرهَ عليه ، كما نرى في تفضيلهم زهيراً حيناً والنابغة حيناً آخر إلا أن هذه مسألةٌ مؤقتة هي مسألةٌ مزاجية عابرة لا يفتأوا أن يعودوا عنها لأن امرأ القيس هو الأصل والنموذج ، هذه مبالغاتٌ ترشيح النابغة أو لبيد أو الأعشى أو زهير ، وهي مسألةٌ وقتية على جهة الاستحسان لشيء قاله زهيرٌ أو النابغة ، مِنْ مَثَلٍ شَارِدٍ أَوْ بَيْتٍ نَادِرٍ يُتَمَثَّلُ بِهِ في وقته أما امرؤ القيس فلا يُمكنُ أَنْ يُنَالَ منه أَو تهتزَّ صورته ، بل هو جَدِيْرٌ أَنْ يُعْمَلَ لَهُ تِمْثَالٌ في الفصاحة والبيان ، وما أَشبه ذلك من الأسباب أَسْبَاب المفاضلةِ التي يُعْطَى بها الشَّاعِرُ أكثر مما يستحق. .

ثم يدخل الشيخ الجرجاني رحمه الله في مناقشة قضية تقدم امرىء القيس ويأتي بالاستفهام التقريري فيقول : [**أليس فيه أَنَّه مما لا يبعد في القياس وأنّه مما يتسع له الاحتمال . وأنه ليس بالقول الذي يُعاب والحكم الذي يزري بصاحبه ، وأَنَّ فضله عليهم لم يكن بالفضل الذي يمنع أن يكونوا أكفاء له ونظراء يسوغ للواحد منهم ويسوّغ هو لنفسه دعوى مساواته**

والتصدي لمباراته !] .

أليس فيه ؟! في هذه القضية التي فُضِّلَ فيها امرؤ القيس على غيره من الشعراء أن يدخل في الموزانة ، ويوضع في ميزان مع غيره من الشعراء ، أليس من المنطق والعدل ما يُحَتِّمُ ذلك حتى يأتي النقدُ سليماً ويكون الترجيحُ صحيحاً ، احتجاجٌ عَقْلِيٌ منطقي ، أو ليس مما يتسع له الاحتمالُ أَنَّ امرأ القيس حين يُوْضَعُ مع غيرِه في الميزان قد لا يثبت على المعيار ويرجح على غيره ، وقد أجريتم الموازنة بين الشعراء جميعاً فما الذي يمنعُ امرأ القيس أَنْ يدخل في ضمنهم ، وحينئذ قد لا يثبت على المحك والاحتمالُ واردٌ - وإذا وُجِدَ الاحتمالُ بَطُلَ الاستدلال - بالتسليم المطلق والحكم بالتميز لامرىء القيس على غيره . وإذا عقدنا موازنة بين امرىء القيس وغيره من الشعراء فليس في هذه سُبَّةٌ أو معاباةٌ أو منقصةٌ تَحُطُّ من قَدْرِ امرىء القيس أو تُزْرِي به أو تُنْقِصُ من قيمتِه ، بل هو الحكمُ السليمُ ، فإخراجكم إياه من القائمةِ لا داعي له ولا يُخلُّ به ، ولا يَمْنَعُ ذلكَ قياساً ، ولا منطقاً ولا عقلاً ، ولا عُرْفاً ولا عَادَةً أَنْ يُوْضَعَ امرؤ القيس مع غيره في الميزان ويثبت للمفاضلة . . .

ثم إن تفضيل امرىء القيس وتقديمه لا يمنعُ أَن يكون من في طبقته أكفاءُ له وأقدر على مباراته ومساواته والدليلُ علقمة الفحل ، ولو عَلِمَ علقمة أن امرأ القيس لا يُجَارى ولا يُبَارى لما تحدَّاه ، والحارث بن التوأم اليشكري ، حتى آلى امرؤ

القيس ألا يُنَازع شاعراً بعده أبداً ، فمجرد نزول علقمة ميدانه يُعَدُّ منقصة لامرىء القيس ، وأنّه ليس من التميز بحيث لا يبارى ولا يجارى ، ومجرد مجاسرة الحارث بن التؤام اليشكري لامرىء القيس دليل على المقاربة والمداناة والمساواة والتصدي وعدم التسليم له بالشاعرية المطلقة وأنّه وإيّاه كفرسي رهان ، ثم إن معلقة امرىء القيس بين أيدينا ونحن نقرأها ولسنا نشك في أنّها لن تخرج عن إطار شعراء المعلقات أمثاله ونقول ما من واحدٍ منهم إلا ودخله الخللُ في شعره ، ولم يسلم من النقدات إذن فالتسليم لامرىء القيس بأنّه النموذج والمثال أَمْرٌ فيه كلام ، وهو غير مسلم من أساسه ، وفيه اختلافٌ ونظر ، وهذا معنى قول الإمام الجرجاني [**وأَن فضله عليهم لم يكن بالفضل الذي يمنع أن يكونوا أكفاءَ له ونظراء يسوغ للواحد منهم ـ ويسوغ هو لنفسه دعوى مساواته والتصدي لمباراته**] ثم يستطرد الشيخ الجرجاني رحمه الله في إيراد الأدلة على فساد هذا الاعتقاد في امرىء القيس ، وأَنّه أشعرُ الشُّعراء ، والفحلُ الفذُّ الذي لا يُقارع فيقول : [**هذا وفي حاجةِ المنصور إلى أَنْ يسأَل عن أَشْعَرِ الشُّعراءِ ـ وقد مضى الدهرُ بعد الدهر ـ دليلٌ أَن لم يكن الذي رُوِي من تفضيلهِ مُجْمَعَاً عليهِ من أَصله وفي أَولِ ما قيل . وأَنَّهُ كان كالرأي يَرَاهُ قَوْمٌ وَيُنْكِرُهُ آخرون . وأَنَّ الصورة كانت كالصورةِ مع جرير والفرزدق . وأَبي تمام والبحتري . ذاكَ لأَنَّهُ لو كان القولُ بأَنّه أَشْعَرُ النَّاسِ قولاً صَدَرَ**

مَصْدَرَ الإجماعِ في أَوّلِهِ ، وَحُكْماً أَطْبَقَ عليه الكافةُ حين حُكِمَ بِهِ حتى لم يُوْجَدْ مُخَالِفٌ . ثم استمر كذلك إلى زمانِ المنصور . لكان يكون كذلك بَعِيْداً من حَمَّادٍ أَنْ يَبْعَثَ إليه مثلُ المنصور . في هيبتِهِ وسلطانِه ودقةِ نَظَرِه وشدةِ مؤاخذته ، يَسْأَلُهُ فيجازفُ لَهُ في الجوابِ وَيَقُوْلُ قَوْلاً لم يَقُلْهُ أَحَدٌ ثُمَّ يُطْلِقُهُ إطلاقَ الشيء الموثوقِ بصحتهِ المتقدم في شهرتِهِ . فتدبر ذلك] .

سَبَقَ أَنْ قدمنا بأَنَّ أبَا جَعْفَرٍ المنصور بَعَثَ إلى حمّادٍ يَسْأَلُهُ عن أَشْعَرِ الشّعراء فقال : « ذاكَ الأَعْشَى صَنَّاجُهَا » .

مجردُ سؤالِ المنصور هذا يُدْحَضُ حُجَّةَ القائلين بتقديم امرىء القيس ودعوى أَنَّهُ أشعرُ الشُّعَرَاءِ باتفاق ، إذ لو كان الاتفاقُ على هذا ولو كان هناك مجردُ شبهةٍ في أَنَّه أَشْعَرُ الشّعراء أو أن الاتفاق قائمٌ على هذا ، لما سأَلَ المنصورُ حمّاداً عن ذلك ، ولكان هذا الأمرُ قد عُلِمَ بالضرورةِ ، فلا داعي لِلنَّبْشِ والتنقير عنه ، فدل ذلك على أَنَّ ما رُوِي من تفضيلِه غَيْرُ مُجْمَعٍ عليه ، وأَنَّ الاختلافَ فيه قَائِمٌ يَرَاهُ قَوْمٌ وينكره آخرون ، كاختلافهم في تقديمِ جرير على الفرزدق أو العكس أو تقديم أبي تمامٍ على البحتري أو العكس مسألةٌ مزاجية ، ومختلفٌ فيها ، ذاكَ لأَنَّهُ لو كان القولُ بأَنَّ امرأ القيس أَشْعَرُ النّاس قَوْلاً صَدَرَ مصدر الإجماع وحكماً أَطْبَقَ عليه الكافةُ حين حُكِمَ به حتى لم يُوْجَدْ مُخَالِفٌ له ، وهو أَمرٌ مُسَلَّم ومقطوعٌ بهِ ، ولا مُشَاحَةَ فيه ، لما أَرْسَلَ

المنصورُ[1] وهو من هو في معرفتهِ بالشِّعرِ وضروبهِ وأَهلِه وله عِلمٌ بنقدِهِ ولولا ثقته بعلم حمّاد الرَّاوية ، ولولا أنَّ القَضيةَ فيها نظرٌ ومَحَلُّ خلافٍ لما سَأَلَ المنصورُ حمّاداً عن أَشْعرِ الشعراء ، وبهذا ثَبَتَ أَنَّهُ لا إجماع على أَنَّ امرأ القيس أخذ الأَولوية أو قَصَبَ السَّبْقِ في ميدان القريض ، وأَنَّه وغيره من طبقته لا يزيدون على سواهم ، فليسوا هم فلتاتُ الدهرِ ، وامرؤ القيس في ميزان النقد سِعْرُهُ كَسِعْرِ غيرِهِ ، فليس هو بالنموذجِ ، وليس هو بالفلتة . . وبالتالي فلا يَصِحُّ أَنْ يُقَالَ إنَّهُ لو وُجِدَ في وقتِ الرسول ﷺ لكان بإمكانه أَنْ يُعَارِضَ القرآنِ الكريم ، إذ في مقدوره أَنْ يستوعب فصاحةَ القرآنِ الكريمِ فيستطيع مجاراته ومعارضته ، وليس الأَمرُ كذلك[2] . .

---

(١) أبو جعفر المنصور / عبد الله بن محمد بن علي وأمه أم ولد بربرية اسمها سلامة ، ولد بالحميمة قرب معان سنة ٩٥ هـ ثاني خلفاء بني العباس وولي الخلافة بعد أخيه السفاح سنة ١٣٦ هـ وهو باني مدينة بغداد وأمر بتخطيطها سنة ١٤٥ هـ وكان عارفاً بالفقه والأدب كثير الجد والتفكير ، والد الخلفاء العباسيين جميعاً ، وكان أفحلهم شعراً وحزماً ، إلا أنَّه قتل خلقاً كثيراً حتى استقام ملكه ، توفي ببئر ميمون من أرض مكة محرماً بالحج ودفن بالحجون بمكة سنة ١٥٨ هـ وكانت مدة خلافته ٢٢ سنة . انظر الأعلام / للزركلي / الجزء الرابع / الطبعة الثالثة .

(٢) حمّاد الرَّاوية : حمّاد بن سابور بن المبارك أبو القاسم الرَّاوية ، كان من أعلم الناس بأيام العرب وأشعارها وأخبارها وأنسابها ولغاتها ، أصله من الديلم ومولده بالكوفة سنة ٩٥ هـ جال في =

[ويزيدُ الأمرُ بياناً أنّا رأيناهم حين طبّقوا الشعراءَ جعلوا امرأ القيس وزهيراً والنابغة والأعشى في طبقة . فأَعلموا بذلك أَنهم أكفاءُ ونظراء ، وأن فضلاً إن كان لواحد منهم فليس بالذي يوئس الباقين من معاناته ، ومن أَن يستطيعوا التعلق به والجري في ميدانه ، ويمنعهم أن يدعوا لأنفسهم ، أو يُدَّعَى لهم أَنهم ساووه في كثير مما قالوه أو دَنَوْا مِنْه ، وأنهم جروا إلى غايته أو كادوا ، وإذا كان هذا صورة الأمر كان من العمى التعلق به . ومن الخسار الوقوع في الشبهة بسببه] .

ويزيدُ أَمرُ تفضيل امرىء القيس على غيرِهِ من الشُّعراءِ تفضيلاً مطلقاً ، وهذا أمرٌ غَيْرُ مُسَلَّم ، بل الأمرُ موضعُ خلافٍ ونقاشٍ يطول ، يزيدهُ وضوحاً وبياناً هو قولُ الشيخ الجرجاني : أَنَّا رأيناهم حين طَبَّقُوا الشُّعَراءَ جعلوا امرأ القيس وزهيراً والنابغة والأعشى في طبقة ، فاعلمونا بأَنَّهُمْ أكفاءُ وأنداد ، ولولا ذلك لما ساووا بينهم ، ومُجَرَّدُ جَعْلِهِمْ في قَرَنٍ

= البادية ، وتقدم عند بني أمية فكانوا يستزيرونه ويسألونه عن أيام العرب ، وهو الذي جمع السبع الطوال (المعلقات) قال له الوليد بن يزيد الأموي بم استحققت لقب الرَّاوية ؟ قال بأني أروي لكل شاعر تعرفه يا أمير المؤمنين ، قال : فكم مقدار ما تحفظ من الشعر قال : كثير ، ولكني أنشدك على كل حرف من حروف المعجم مئة قصيدة كبيرة سوى المقطعات من شعر الجاهلية دون الإسلام . .

انظر الأعلام / للزركلي / الجزء الثاني / الطبعة الثالثة

وَاحدٍ وطبقةٍ واحدةٍ، إشعارٌ بأَنَّهُمْ متقاربون، وأَنَّهُ ليس أَحدٌ مُسَلَّماً لَهُ بالأسبقية، أو التميز المطلق، ومجردُ نزولِ مَيْدَانِه، هو مَنْقَصَةٌ في حَقِّ امرىء القيس، وأَنَّهُ ليس من التميز بِحَيْثُ لايُدَانى أو يُجَارى، وليس ذلك بالذي يوئس الباقين من معاناته أو الجري في ميدانِه، مجرد المقاربة والمداناة والمساواة تجعلهم قادرين على مسابقته في ميدانه ، وإذا كان هذا صورةَ الأمرِ كان من العمى التعلقُ به ، وذلك فيما يتعلق بامرىء القيس ، وأَنَّهُ ليس بالمتفق على الأفضلية والأسبقية له إذ لا يمكن أَنْ يكون دليلاً يُسْتَنَدُ عليهِ ، في أَنَّهُ يوجدُ في الزمان من يَبُزَّ أَهْلَهُ ويكون له الأَفضليةُ والأسبقيةُ، وبالتالي لا يصح أَنْ يُقَالَ إنَّهُ : لو وُجِدَ امرؤ القيس في وقتِ الرسولِ ﷺ لكان بإمكانه أَنْ يُعَارِضَ القرآنَ الكريم إذ في مقدوره أَنْ يستوعبَ فصاحةَ القرآنِ الكريم فيستطيع معارضة القرآن الكريم وليس الأَمرُ كذلك . . . [**ومن الخسار الوقوع في الشبهة بسببه**] والشبهةُ تَمَثَّلَتْ في أَنَّهُ قد جَرَى في الأَزمان والدهور أَنَّهُ قد يتميز الشخصُ في فَنٍّ فَيَغْلب فيهِ، هذه الشبهةُ لا مَوْقِعَ لها هُنَا ، ولا يمكن التعلقُ بها إذ لم يُوْجَدْ على مَرِّ الدُّهُوْرِ مَنْ هو الفَرْدُ العَلَمُ في الفصاحةِ على امتداد حياته، فإن قلتم : امرؤ القيس مُجْمَعٌ على فَصَاحَتِهِ وبلاغته فليس الأمرُ كذلك ، ولم يَبُزَّ أَهْلَ صِناعتِهِ كما رأينا ولمسنا فيما تقدم من حديث ، وعلى هذا فهي شبهةٌ وَاهِيَةٌ ، من الخسارِ الوقوعُ فيها ، وامرؤ القيس قد تكلموا فيه ، وغيره قد تكلموا فيه فهو ضَرْبٌ من العبثِ ،

والوقوعُ في الخسارةِ البحثُ فيه ، وإضاعةُ الوقتِ بسببه .

وبعد أنْ علمنا بأنَّ المعول في الإعجاز عند الشيخ عبد القاهر الجرجاني على « النظم » وعرفنا بأن النظم عنده هو توخي معاني النحو بين الكلم ، أي ترتيب المعاني في النفس ، ثم النطق بها ألفاظاً على هذه الصورة التي روعي فيها معاني النحو من حيث التقديم والتأخير ، ووضع الفاعل موضعه ، والحال موضعها بطريقة ارتضاها السابك المؤلف ليجعل من كلامه بليغاً يخرج في أحسن وجوه التأليف وفي أحسن نظوم التأليف . . يرى الشيخ الجرجاني بأنّه لا يكفي في الفضل والتقدم أن يكون قد جاء بنظم لم يُؤلف بل لا بد أن ينضم إلى ذلك أَنْ يُبَاينَ في نظمه ما عُرِفَ ويعرفُ من أَجناس الكلام ، أَنْ يكون متميزاً على غيره من ضروب النظم المختلفة ، فيجمع بين البليغ الرصين الجزل ، والفصيح القريب السهل ، والجائز الطلق الرسل ، فلا يكفي أَنَّهُ جاء بنظم لم يألفوه ، بل لا بد أنْ يَجْمَعَ هذه الأَوصافَ في ترتيبه في أسلوبه ، وفي نظمه . . تميزاً يستشعر منه الذين يعاصرونه ، أَنَّهُم لا يقدرون على مجاراته ، وأنَّه متفرد في نظمه ، ويتبينون ذلك جلياً ، أنّه لا يمكنُ مقارعته ولا السير على منواله ، لكونه متفرداً في نظمه ، وجاء بكلام لم يعهده معاصروه ، ولا يَشُكُّونَ في عجزهم ، وقد وقع ذلك في أنفسهم واستقر ، وحتى استشعروا معه اليأس من أن يقدروا على مثله ، أو عشر سور من مثله أو حتى سورة من مثله ،

وَهَذِهِ لَعَمْرُ اللهِ بلاغةُ القرآن ونظمه فهو الذي جَمَعَ عمودَ البلاغة ، والتي أخذت من أجناسِ الكلام المختلفة أرفعها وأعلاها من البليغ الرَّصين الجَزْلِ ، إلى الفصيح القريبِ السهل ، إلى الجائزِ الطَّلْقِ الرسل ، فحازت بلاغته من كل قسم منها حصة وأخذت من كل نوعٍ منها شعبةً ، حتى انتظم لها بامتزاجِ هذه الأوصاف نَمَطٌ من الكلام يَجْمَعُ بين صفتي الفخامةِ والعذوبة ، هذه البلاغةُ القرآنية التي تجمع لها هذه الصفات من مجيئه بأفصح الألفاظ في أحسن نظوم التأليف ، مضمناً أصحّ المعاني ، هذه البَيْنُوْنَةُ والتباينُ في نَظْم القرآن ، وكونه ضرباً من القول لم يعهده العرب من قبل « هذه الميزةُ » هي المُحَصِّلَةُ النهائية ، والنتيجةُ التي تسلسل بنا الشيخُ الجرجاني بعد التمهيد وإيراد المقدمات من قوله : [**وطريقةٌ أخرى في ذلك وتقريرٌ له على ترتيب آخر . وهو أنَّ الفَضْلَ يجبُ ، والتقديم إما لمعنى غريب يسبق إليه الشاعر فيستخرجه . أو استعارة بعيدة يفطن لها ، أو لطريقة في النظم يخترعها ، ومعلوم أن المعولَ في دليل الإعجاز على النظم ، ومعلومٌ كذلك أن ليس الدليل في المجيء بنظم لم يُوجد من قبل فقط ، بل في ذلك مضموماً إلى أنْ يَبِيْنَ ذلك النظمُ من سائر ما عُرِفَ ويعرف من ضروب النظم ، وما يعرف أهل العصر من أنفسهم أنهم يستطيعونه البينونة التي لا يعرض معها شكٌّ لواحد منهم أنه لا يستطيعه ، ولا يهتدي لِكُنْهِ أمره حتى يكونوا في استشعار اليأس من أن يقدروا على مثله ،**

وما يجري مجرى المثل له على صورة واحدة ، وحتى كأن قلوبهم في ذلك قد أفرغت في قلب واحد] .

هذه الميزةُ التي بانت في نظم القرآن الكريم ، وكونه ضرباً من القول لم يعهده العربُ من قبل ، وزيادةٌ في التميز أنَّهم وجدوا في أنفسهم عجزاً عن معارضته ، بل وتسليماً ، فإنَّهمْ في عَجْزِهِمْ وكون العجز قد استولى عليهم جميعاً ، حتى كأنَّ قلوبهم في تَمَثُّلِ العجز قد أُفْرِغَتْ في قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ . . .

وبعد هذا فقد ثَبَتَ بما لا يَدَعُ مجالاً للشك أن امرأ القيس لم يتميز في أسلوبه ولا في طريقته ، ولا في شعرهِ ولا في معلقته ، بل وقد تعرض شعره كُلُّهُ للنقد ، ولم يسلم من الخلل ، ومادام الأمرُ كذلك فإنَّ كلام امرىء القيس لا يَفْتَرِقُ عن كلامِ غيره ومادام أنَّ الأمرَ كذلك فإنَّ ما يثيرهُ أولئك المرجفونَ المغرضون من الشبَهِ التي يرددونها دائماً وأن القرآنَ الكريم وقد عجز عنه العربُ المعاصرون له ، لكنه قد يقدِرُ عليه أساطينُ الفصاحةِ والبيانِ كامرىء القيس وأضرابه لو وُجدوا في عَصْرِ القرآنِ الكريمِ ، نقول لهم : هذا كلامٌ وَاهٍ ، وأَنَّ الذي يمكن أن يكونَ له الشَّرَفُ والفضيلةُ هو نَظْمُ القرآنِ الكريمِ الذي باينَ سائر أجناس الكلام ، والذي لم يَعْرِضُ لواحدٍ من أهل العصر شكٌّ في أنه لا يستطيعه ولا يقدر عليه . . . .

[وإذا كان الأمر كذلك لم يصح لهم تعلق بشأن امرىء القيس حتى يدّعو أَنَّه سبق إلى نظم بانَ من كل نظم عُرِفَ لمن

قبله ، ولمن كان بعده في زمانه البينونة التي ذكرنا أمرها ، وهم إذا فعلوا ذلك وَرَّطُوا أنفسهم في أعظم ما يكون من الجهالة ، من حيث أنه يفضي بهم إلى أن يدعوا على من كان في زمان النبي ﷺ من الشعراء والبلغاء قاطبة الجهل بمقادير البلاغة والنقصان في علمها ، ولأنفسهم الزيادة عليهم وأن يكونوا قد استدركوا في نظم امرىء القيس مزية لم تعلمها قريش والعرب قاطبة] .

يريد أن يقول الشيخ الجرجاني رحمه الله : وإذا كان الأمرُ كذلك وثبت بأنَّ الذي له الشَّرف والفضيلة إنما هو نظمُ القرآن الكريم ، لم يصح لأولئك المرجفين التعلق بشأن امرىء القيس ولم يعد لدعواهم دليلٌ بعد انكشافِ أمرها وافتضاحها حيثُ لم يباين نظمُ امرىء القيس نظمَ غيره لا من سبقه ولا من عاصره ولا من جاء بعده ، وبعد ما قدمنا من تَهَافُتِ شِعْرِهِ ، ومغالبته وافتضاح أمره من علقمة الفحل ، وانقطاعه مع الحارث اليشكري . من كل هذا اتضح بأن نظم امرىء القيس لم يجار نظم أقْرَانِهِ حتى يجاري نظم القرآن الكريم أو يكون في مواصفاته ، البينونة التي لم يقم معها شَكٌّ ، أو لَبْسٌ والذين يقولون بذلك ، ما زادوا على أن فَضَحُوا أنفسهم ، وحكموا عليها بالجهل لأن هذا الكلام سوف يُفْضِي بهم إلى دعوى أن كل من كان في زَمَنِ النبي ﷺ من الشعراء والفصحاء والبلغاء من قريش والعرب بأنَّهُم جَهَلَةٌ لا يفقهون شيئاً في الفصاحة والبيان ومقادير البلاغة حتى عَظَّمُوا القرآنَ

الكريم ، وعظّموا نظمه فأقروا للقرآن الكريم ما ليس له لجهلهم بمقادير البلاغة والفصاحة ، والنقصان في علمها وأنَّهم مَخْدُوعُونَ بنظمِ القرآنِ الكريم ، والحكمِ بإعجازه . . وفي نفس الوقت فقد ادعى هؤلاء لأنفسهم الزيادة في الفصاحة والبيان حتى أدركوا ما لم تدركه العربُ العرباء أَهْلُ البلاغةِ واللسن ، والمتصرفون في أوديةِ الكلام ، والمُرْمِدُوْنَ في هذا الشأن وأن يكون هؤلاء المتأخرون ، وقد جاءوا بعد فساد الألسنة ، ونشوء اللحن وهم أبعدُ ما يكونون عن روح اللغة ، أن يكونوا قد استدركوا ما لم تدركه قريشٌ والعربُ من نظم القرآن ، وإن امرأ القيس ومن سبقه في الجاهلية كان يُمْكِنُ أنْ يُعَارضُوا القرآن ، نعم جَهلَتْ قريشٌ والعربُ ذلك وأدركه هؤلاء ، وقريشٌ والعربُ ما فَتِئوا يَتَحَيَّنُونَ الفُرَصَ للحطِّ من شأن القرآن الكريم وكانوا أحرصَ الخلقِ على أن يجدوا فيه مَغْمَزاً وعليه مطعناً ، فلو كان عندهم هذا ممكناً لتعلقوا به وأسرعوا بالرَّدِ عليه ، ولقالوا : يا محمدُ أنت تتحدانا وتقول ليس في مقدوركم الإتيان بنظمٍ كنظمِ القرآنِ الكريمِ ، ونحن قد جئنا بنظمٍ مثله نظمِ امرىء القيس ! ، وأنت تقولُ : إن البشرَ لا يستطيعونه ، وامرؤ القيس من البشر وقد استطاعه ! هل يمكن أن تسكُتَ قريشٌ عن هذا ، وبين أيديهم نظم يعرفون من حاله أنَّه مُسَاوٍ في الشَّرَفِ نظمَ القرآن الكريم ؟ لا . إنَّ قريشاً لم تصمت إلا لأنَّها عرفت ضَعْفَ هذا الكلام ، وأنه أضعفُ من أن يكون في مَزِيَّةِ قدر القرآن

الكريم ، وإلا فمعلقة امرىء القيس بين أيديهم يعرفونها ، ويحفظونها ويدركون نظمها ، ويدركون قصيد الجاهلية ، ويرددونه ليل نهار .... .

إذا كان هذا هو موقف قريش والعرب من شعر امرىء القيس ومن على شاكلته . . وذهولهم وانقطاعهم أمام نظم القرآن ، وهم أهل الفصاحة واللسن ، ولهم فيه ضروب من دقيق المعرفة . . أيصح بعد ذلك التورط في دعوى أن امرأ القيس وغيره من شعراء الجاهلية أقدرُ على مجاراةِ القرآن الكريم أو معارضته ممن لم يعرف قَدْرَ الكلامِ ، ومن جاء في العصور المتأخرة بعد أنْ فَسَدَ اللسانُ وَفَشَت العجمى ، وَدَخَلَ الكلامَ من الخلل والاستحالة ما ذَهَبَ به عن نَجْرِهِ الأول وسَنَخِ طبعه الأقدم ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم . .

[هذا وَمَنْ يُسَلِّمُ بأن امرأ القيس زاد في البلاغة وشرف النظم على نظم من كان قبله ما إذا اعتبر كان في مزية قدر القرآن على نظم من كان في عصر النبي ﷺ ؟! أم من أين لهم هذه الدعوى ؟ أَلِشَيء علموه هم في شعره بأَن لهم عند قياسه إلى شعر من كان قبله كأبي دؤاد والأفوه الأَودي وغيرهما ؟ أم لخبر أتاهم فليرونا مكانه وليس لهم إلى ذلك سبيل] .

ومن يُسَلِّمُ بأنَّ امرأ القيس وفي كلام الشيخ استفهام إنكاري أي لا أحدَ يُسَلِّمُ بهذا فلم يثبت بأنَّ امرأ القيس زَادَ في البلاغة وشرف النظم على نظم من كان قبله . . بل إن هُنَاكَ من ماتنه كالحارث اليشكري ، وهناك من أفحمَهُ كعلقمة

الفحل وهو لم يتميز في الطريقة ولا في الأسلوب حتى أعجز الشُّعَراءَ الآخرين . . تلك مَزِيَّةُ القرآنِ الكريمِ والذي جاء متميزاً في كل هذا في نظمه في أسلوبه وفي طريقته حتى أعجز الآخرين عن معارضته ، مع أَنَّهُم أَهْلُ الفصاحةِ والبيانِ ، وجاء متميزاً في سَلْبِ لُبِّهِمْ عن معارضته مع كونهم أَهْلَ خُصُوْمَةٍ وَلَدَد ، وطبائعُ العربِ الموروثة التي لا تَتَبَدَّلُ أَنَّهمُ لا يُسَلِّمُونَ لخصومهم فضيلةً وهم يجدون سبيلاً إلى دفعها ، فقد كان الشاعرُ يعارضُ نظيره ويماتنه ولو كان بأقصى الأرض ولكنَّ شعراءهم وخطباءهم صمتوا عن معارضة القرآن الكريم صمتَ الأموات وسكون القبور ، وما ذلك إلا لشعورهم العميق بالعجز التام عن معارضته فلو كانت المعارضةُ ممكنة لما سكتوا عنها ، والواقع أن أحوال العرب شاهدة بطريق لا يقبل الشَّك ، أنهم لو كان في وسعهم معارضة القرآن الكريم لما سكتوا عنها بحال من الأحوال ، ولما ركبوا متن الحتوف ، واستنطقوا السيوف بدل الحروف ، وقد كانوا يجدوا له وقعاً في القلوب وقرعاً في النفوس يريبهم ويحيرهم ، فلم يتمالكوا أن يعترفوا به نوعاً من الاعتراف . .

ولما قرأ رسول الله ﷺ القرآن الكريم في الموسم على النفر الذين حضروه من الأنصار آمنوا به وعادوا إلى المدينة فأظهروا الدِّيْنَ بها ، فلم يبق بَيْتٌ من بيوتِ الأنصار إلاّ وفيه قرآن يُتْلَى ، حتى قِيْلَ فُتحت الأمصارُ بالسيف وفتحت المدينة بالقرآن . تلك هي مَزِيَّةٌ القرآن الكريم على نظم من كان في

عصر النبي ﷺ حتى بُهتوا وتبيَّن لهم البينونةُ التي لا يَعْرِضُ معها شَكٌّ لواحدٍ منهم أنَّهُ لا يستطيعه ، وحتى كانوا في استشعار اليأس من أن يقدروا على مثله كانوا على صورةٍ واحدة ، وكأنهم أُفْرِغُوا في قلبِ رجلٍ واحد في استشعار اليأسِ منه وَعَدَمِ القدرةِ على معارضته . . .

ثم من أين لهم هذه الدعوى في تميز امرىء القيس على غيره من الشعراء ؟! هل وجدوا في قول امرىء القيس ما يميزه على الشعراء الذين كانوا في عصره ، أو في عصر غيره عن طريق الدراية والنقد والموازنة ، أم عن طريق رواية وصلتهم . فهي أحدُ طريقين : إما أن يكون الخبرُ قد وصلهم عن طريق الدراية أو عن طريق الرِّوَايَةِ ، وهم في كلتا الحالتين مطالبون بالأدلة والحجج التي تثبت صدق دعواهم ، وإذا لم يقم دليل على ذلك وثبت عكسه فقد وجب القطع بفساد ما ادعوه في امرىء القيس ودحضه ، وهذا معنى كلام الجرجاني [أم من أين لهم هذه الدعوى ؟ ألشيء علموه هم في شعره بَانَ لهم عند قياسه إلى شعر من كان قبله كأبي دؤاد والأفوه الأودي وغيرهما ـ وهذه طريق الدراية ـ أم لخبر أتاهم فليرونا مكانه ـ وهذه طريق الرواية ـ وليس لهم إلى ذلك سبيل ، بل قد أتى الخبر بما يُجَهِّلُهُمْ في هذه الدعوى ويكذبهم وهو الذي تقدم من قول أبي الأسود وتفضيله أبا دؤاد بحضرة أمير المؤمنين علي رضوان الله عليه] وهو الذي تقدم فيما قررناه سابقاً من سؤال أمير المؤمنين علي أبا الأسود

عن أشعر الشعراء فأجاب بتفضيل أبي دؤاد ، وقل مثل هذا في قصة سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه مع ابن عباس رضي الله عنهما وتقديمه زهير لأنه لا يعاظل في الكلام ، وابن عباس مع الحطيئة ، والمنصور حينما بعث إلى حمّاد الرَّاوية يسأله عن أشعر الناس فقال الأعشى صنّاجها . . ما يدل على خلاف ما ذهبوا إليه من تفضيل امرىء القيس ، وعدم التسليم له بالشاعرية المطلقة ، وكونه أشعر الشعراء ، وفي هذا أبلغُ الرَّدِ على أولئك المغرضين . . .

[أفيكون أن يكونوا قد عرفوا لامرىء القيس المزية التي ذكروها ، وكان فضله على من تقدمه الفضل الذي قالوه . ثم يقول أمير المؤمنين لأبي الأسود : قل ، بحضرة العرب وبعقب أن تشاجروا في أشعر الناس ، فيؤخره ويقدم أبا دؤاد ، ثم لا يسمع نكيراً كالذي يجب فيمن قال الشيء الظاهر بطلانه . وذهب مذهباً لا مساغ له !]

ويستمر الشيخ الجرجاني رحمه الله في الرد على أولئك المرجفين المغرضين والذين يقولون بأن امرأ القيس وأضرابه لو وجدوا في عصر النبي لكان بإمكانهم معارضة القرآن الكريم ومجاراته فيقول : وهل يُعْقَلُ أن يكون لامرىء القيس ذلك التميز الذي يفوقُ فيه أقرانه والذي يجعله النموذج والمثال ، ثم يقول أميرُ المؤمنين علي رضوان الله عليه لأبي الأسود : قل يا أبا الأسود من أشعر الناس ، وذلك في مجمع العرب وهم لا يزالون يختصمون في أشعر الناس ، فلو كان

امرؤ القيس أشعر الناس لما اختلف فيه ، ولو كان هذا الأمر مُسَلَّماً ، لما سأل أمير المؤمنين من أشعر الناس، إذ لا يمكن الخوضُ في المسلمات ، والقضايا المقطوع فيها المبتوتة ، ثم ماذا يكون من أبي الأسود يُضْرِبُ عن امرىء القيس صفحاً فيقول : أشْعَرُهُم الذي يقول كذا وكذا ، يعني به أبا دؤاد . ومع هذا كله لا يُسْمَعُ من يُنكِرُ عليه قوله هذا أو يعارضه كما لو قال شيئاً مخالفاً أو ظاهر البطلان ، مما يدل على أن الحكم بالشاعرية المطلقة لم تُسَلَّمْ لامرىء القيس ، وإلا لما كَثُرَ الخلط واللغط ، ولما حدث ما حدث ، وكأنهم لم يقطعوا أمراً فيها بعد . . .

[**وليست تذكر أمثال هذه الزيادة ، ويتكلف الجواب عنها أنها تأخذ موضعاً من قلب ذي لب ، ولكن الاحتياط بذكر ما يتوهم أن يستروح إليه الغويّ ويغالط به الجاهل**] يقول الشيخ الجرجاني ولا داعي لمثل هذا الاستطراد وسوق الحجج والبراهين على وَهَن ما ذهبوا إليه من تميز امرىء القيس وأنَّهُ بَزَّ أَقْرَانَهُ وأنَّه يمكن أنْ يُجاري القرآن الكريم لو وجد في عصره ، ما كان ينبغي الاستطرادُ في مثل هذه الدعوى وإظهار بطلانها والحكم بتميز القرآن الكريم في بلاغته وفصاحته ونظمه على كل نظم ، وما كان ينبغي أمثال هذه الزيادة ، فالأمرُ ظاهرٌ للعيان ، وأصحابُ الألباب والبصائر يدركون كُلَّ هذا ويعلمون بلاغة القرآن وإعجازه المتمثل في نظمه الذي لا يبارى ولا يجارى كما يعلمون تَهَافُتَ شعر امرىء القيس

ونظمه ، ولكن الاحتياط في دفع هذه الشبهة من أن تقعَ موقعاً في قلب الجاهل أو يتوهمها الغوي دعانا إلى الزيادة والإكثار والإطالة في ذكر القصص والروايات التي حصلت بين سيدنا علي وأبي الأسود من ناحية وبين سيدنا عمر وابن عباس من ناحية أخرى حتى نثبت فساد هذه الدعوى وارتفاع نظم القرآن الكريم وتميزه حتى أنَّهُ لا يمكن أنْ يُجاريه أحَدٌ مهما بَلَغَ في الفصاحةِ والبيان . . .

ويعلل الجرجاني إطالته في الرد على أولئك المرجفين ، بأنَّ الشُّبْهَةَ إذا كانت في أَصْلِ الدِّينِ وتمس العقيدة ، فإنها والعياذ بالله تكون كالداء العضال الذي يُخْشَى منه على الروح والبدن فهو يَسْرِي ويتغلغل حتى يَسْتَفْحِلَ أَمْرُهُ وحينئذ يَصْعُبُ علاجه ، وبعد ذلك تكون منه الهلكة وهذا معنى قوله : [كانت كالداء الذي يخشى منه على الروح ، ويخاف منه على النفس فلا يستقل قليله ولا يتهاون باليسير] لأن هذا الكلام وإن لم يكن ذا بال ولا يؤبه له لكنَّ معظم النار من مستصغر الشرر ولاسيما إذا كان هذا في الدِّيْن فإنَّهُ لا يُسكَتُ عليه بل لابد من أمثال هذه الزيادة ، ولا يتوهم مكان الحركة له إلا استقصي النظر فيه وأعيد الكَيُّ على نواحيه ، وكالحيوان ذي السُّمِ يُعَادُ الحَجَرُ عَلَى رَأْسِهِ ، مادام يُرَى بِهِ حِسٌّ وإن قل . والله ولي العصمة ، والمسؤول أن يجعل كل ما نعيد ونبدي فيه لوجهه بفضلِه ومَنِّهِ . .

[فاعلم أَنَّهمْ إذا ذكروا في تعلقهم بالتوابع ، ومحاولتهم

أن يمنعوا من الاستدلال مع تسليم عجز العرب عن معارضة القرآن مَنْ تراخى زمانه عن زمان النبي ﷺ ، كالجاحظ وأشباهه كانوا في ذلك أجهل ، وكان النقضُ عليهم أسهل ، وذلك أنَّ الشرط في نقض العادة أن يعم الأزمان كلها ؛ وأَن يظهر على مدعي النبوة ما لم يستطعه مملوك قط] .

يقول الشيخ الجرجاني رحمه الله قَدَّمْنَا فيما مضى ما يلوكُ به أولئك المرجفون ألسنتهم من أن امرأ القيس وأشباهه ممن سبقوا عصر النبي ﷺ ونزول الوحي ، إن بإمكانهم لو وجدوا في عصر النبي ﷺ أن يُجاروا القرآن ويعارضوه ، وناقشنا هذه الشبهة وأفضنا وأطنبنا مع أن الشيء ظاهر البطلان ، ولا داعي لتكلف الجواب فيه ، لكن الاحتياط من أن يقع في نفس الجاهل شيء من الغلط ، وأن تختلط عليه الأمور دفعنا إلى أن نبدي ونعيد ونكرر في أكثر من موضع حتى يتضح وجهُ الحق في المسألة ، ويعود الحقُّ إلى نصابه في تميز بلاغة القرآن الكريم ونظمه الذي أعجز الأنس والجان على حد سواء . .

ونعود هنا لندفع شبهة أخرى تتعلق « باللاحق » فبعد أن أبطلنا القول بتميز السابق ، وعجز امرىء القيس وإضرابه عن مجاراة القرآن الكريم أو معارضته نناقش هنا من يقول بأنَّ من جاء بعد عصر النبي ﷺ كالجاحظ وأمثالِه من الكتّاب والفصحاء أقدر على معارضة القرآن الكريم ومجاراته ، ونحن نعلم تميز الجاحظ وأنَّهُ شَيْخُ الكُتَّابِ وله اقتداره على التصرف

في أوديةِ الكلام وقد تميز على معاصريه من شيوخ البيان حتى شهد له بذلك القاصي والدَّان ، وأصبحت كتاباته محط الأنظار ، فما الذي يمنع الجاحظ وهو المثلُ والنموذجُ في البيان أن يعارض القرآن ، وأن يأتي على مثاله ، وأن يجري أشواطاً على منواله ، والرد على هؤلاء أسهل ، وهم في ذلك أجهل ، لأن من استشهدوا به على مجاراة القرآن الكريم كالجاحظ وأشباهه ، هؤلاء إنما هم عالة على السابقين ، يتمثلون ببيانهم ، ويتغنون بفصاحتهم ويشهدون لهم بالتقدم ، فهم لهم توابع ، فَجَّرَ لهم القدماءُ يَنَابيْعَ القولِ فاستقوا ، وَمَثَّلُوا لهم مُثلاً في البلاغة فاحتذوا ، وإذا كنا نعلمُ أنْ استمداد الجاحظ وأشباه الجاحظ من كلام العرب والبلغاء الذين تقدموا في الأزمنة الغابرة ، فهل يمكن لمن هذا حاله وهو يعيشُ على فُتَاتِ موائدِ السابقين ، والسابقون قد أقروا بالعجز والانقطاع أمام بلاغة القرآن الكريم ، هل يمكن لمن هذا حاله أن يعارض القرآن الكريم ، أو يجري على منواله ، أو يقتحم ميدانه(١) . . ؟!!

---

(١) ولقد أفاضَ الجاحظ في كتابه « البيان والتبيين » وهو يتحدثُ عن العرب ، وجعلهم المثل والقدوة وأَنَّهُمْ أَهْلُ الفصاحة واللسان ، والمقتدرون على التصرفِ في أودية الكلام ، واستطرد في ذِكر مفاخرهم ولاسيما وهو يقارعُ الشُّعُوبيّةَ ، وأَنَّهم العَرَبُ الأَقْحَاحُ حَرَشَةُ الضَّبِ وأَكَلَةُ اليَرْبُوعِ مَضَاغَةُ الشِّيْحِ وَالقَيْصُومِ ، والذين لا يتعسرُ عليهم البيان ، وإليهم تُنسَبُ الفضائلُ في هذا الشأن .

ثم اعلم أن الشرط في نقض العادة ـ أي في المعجزة ـ أن يعم الأزمان كلها ، فالقرآن الكريم هو الذي ينطبق عليه هذا الوصف ، وأما الشرط الثاني في المعجزة فأن يظهر على مدعي النبوة ما لم يستطعه مملوكٌ قط .

والتعبير بمملوك تعبيرٌ دقيقٌ وجميل فيه معنى العجز أمام مولاه ، وأمام القدرة العلوية وأنَّهُ عاجزٌ عن أن يدافع عن نفسه فمن باب أولى أن يعارض ما جاء به سيده ومالكه فالكلام كلام الله ، والنظم من عند الله هذا النظم هو الذي جعل القوم واجمين لا يحيرون . وصدق الله العظيم القائل: ﴿ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا ﴾ **[وأمَّا تَقَدُّمُ واحد من أهل العصر سائرهم ، ففي معنى تقدم واحد من أهل مصر من الأمصار غيره وممن يضمه وإياه ذلك المصر ، لا فضل في ذلك بين الأمصار والأعصار إذا حققت النظر ، إذ ليس بأكثر من أن واحداً زاد على جماعة معدودين في نوع من الأنواع ، فكان أعلمهم أو أكتبهم أو أشعرهم أو أحذقهم في صنعة ، وأبهرهم في عملٍ من الأعمال ، وليس ذلك من الإعجاز في شيء ، إنما المعجزُ ما عُلِمَ أَنَّهُ فوق قُوى البشر وَقُدَرِهِمْ إن كان من جنسٍ ما يقعُ التفاضلُ فيه من جهةِ القُدَرْ ، أو فوق علومهم إن كان من قبيل ما يتفاضل الناس فيه بالعلم والفهم]**[1] .

---

(١) الشافية في إعجاز القرآن الكريم / ١٣٥ .

وقول الجرجاني رحمه الله [وأما تقدم واحد من أهل العصر سائرهم ، ففي معنى تقدم واحدٍ من أهل مصر من الأمصار غيره ممن يضمه وإياه ذلك المصر ، لا فضل في ذلك بين الأمصار والأعصار إذا حققت النظر] فهو يُقَدِّرُ هنا المساحةَ الزمانية والمكانية ، فإنَّ تَقَدُّمَ واحدٍ من أهلِ مصر من الأمصار غيره ممن يضمه ذلك المصر ، أو ذلك العصر ، كامرىء القيس في الجاهلية مثلاً ، وجرير في العصر الأموي ، والمتنبي في العصر العباسي ، فإنه لا يعدو أن يكون تقدماً محدداً في عصر من العصور ، وفي مصر من الأمصار ، وهذا لا يمنع أن يكون هناك من يباريه أو يجاريه ، كما وُجِدَ من أفحم امرأ القيس وماتنه كالتوأم اليشكري ، ومن ناقض جريراً وفاخره كالفرزدق والأخطل ، وقل مثل ذلك في المتنبي ، فالمساحة الزمانية والمكانية التي جرى فيها التنافس والتميز محدودة وليس في هذا التميزُ إعجازٌ ، إذ ليس بأكثر من أن واحداً زاد على جماعة معدودين في نوع من الأنواع ، فكان أعلمهم ، أو أكتبهم ، أو أشعرهم ، أو أحذقهم في صنعة ، أو أبهرهم في عمل من الأعمال ، ليس ذلك من الإعجاز في شيء . لأنَّ للإعجاز حدوده وشروطه فمناطُ الإعجاز [ما علم أنَّه فوق قوى البشر وَقُدَرِهِمْ ، إن كان من جنس ما يقع التفاضل فيه من جهة القُدَرْ ، أو فوق علومهم إنْ كان من قبيل ما يتفاضلُ الناسُ فيه بالعلم والفهم] .

فهل عُلِمَ من أحَدٍ من الشُّعَراءِ أو الخُطَبَاءِ أو الكُتَّابِ من

ادَّعَى بأَنَّهُ قد جاء بما هو فوق قوى البشر ولا يستطيعونه ؟

هل أورد أَحَدُهُم نَصّاً شِعْرِيّاً ، أو قطعة نثرية ثم قال إنّه لن يأتي أَحَدٌ بمثلِ ما أتيتُ على الدهورِ والعصور ؟

ذلك هو مضمونُ الإعجاز وَحَدُّهُ وَمَنَاطُهُ الذي يُحْتكَمُ إليه ، وهذا القَدْرُ لم يثبت إلا لكتاب الله العزيز .

وإلا فلم يُوجد الفَرْدُ الذي أَفْحَمَ غَيْرَهُ فيما يقع فيه التفاضلُ من العلوم والفنون . . ولم يُوجد الذي ادَّعَى بأَنَّهُ قد تَفَوَّقَ وأتى بما يَعْجَزُ عنه البشرُ مما هو في قُدَرِهِمْ ومن جنسِ كلامهم . . كُلٌّ أدْلَى بدلوه وقد وُجِدَ من ينافسه ويباريه أمّا الإعجازُ المطلقُ فلا . . .

[وإذا كنا نعلم أنَّ استمداد الجاحظ وأشباه الجاحظ من كلام العرب والبلغاء الذين تقدموا في الأَزمنة وأنهم فجّروا لهم ينابيع القول فاستقوا ، ومثلوا لهم مثلاً في البلاغة فاحتذوا ، إذن لم يبلغوا شأو ما بلغوا ، ولم يدرّ لهم من ضروع القول ما در ، ولو أن طباعاً لم تشرب من مائهم ، ولم تُغذَ بجناهم ولم يكن حالهم في الاكتساب منهم ، والاستمداد من ثمار قرائحهم ، وَتَشَمُّم الذي فاح من روائحهم ، حال النحل التي تغتذي بأَريج الأَنوار وطيب الأَزهار وتملأ أَجوافها من تلك اللطائف ثم تمجها أرياً وتقذفها مَذِيّاً ، إذن لكان الجاحظ وغير الجاحظ في عداد عامة زمانهم الذين لم يرووا ، ولم يحفظوا ولم يتتبعوا كلام الأَولين من لدن ظهر الشعر وكانت الخطابة إلى وقتهم الذي هم فيه ، ولم يعرفوا إلا ما يتكلم به

آباؤهم وإخوانهم ومساكنوهم في الدار والمحلة ، أو كانوا لا يزيدون عليهم إن زادوا إلا بمقدار معلوم فمن أعظم الجهل وأَشَدِّ الغباوة أَنْ يُجْعَلَ تَقَدُّم أَحدهم لأَهلِ زمانه من بابِ نقض العادة وأن يُعَدَّ مَعَدَّ المعجز] .

ثم يعود الشيخ الجرجاني إلى الجاحظ وأشباهه ممن تراخى زمانه عن زمان النبي ﷺ فيقول : إن الجاحظ وأشباهه إنما بلغوا شأو ما بلغوا ، بعد أن عاشوا على موائد السابقين من معينهم ينهلون ، ومن ثمار قرائحهم يستمدون ، ومن مناهلهم يرتوون ، فهم أشبه ما يكون بالنحل التي تتغذى بأريج الأنوار وطيب الأزهار ، وتملأ أجوافها من تلك اللطائف ثم تمجها أرياً وعسلاً صافياً ، وشهداً نقياً ، ولولا أنَّ الجاحظ وأشباهه عاشوا على تلك الموائد وثقَّفوا أنفسهم بما تبصروا منها ، لما زادوا عن أولئك العامة في زمانهم الذين لم يقرأوا ولم يرووا ولم يحفظوا ولم يتتبعوا كلام الأولين من لدن ظهر الشعر في العصر الجاهلي الأول إلى وقتهم الذي هم فيه وهو العصر العباسي الأول الذي عاش فيه الجاحظ أو العصر العباسي الثاني الذي عاش فيه ابن العميد وغيرهم ، ولكانوا في ثقافتهم وعلمهم لا يزيدون عن ثقافة آبائهم وإخوانهم ومساكنوهم في الدار والمحلة الذين لم يرووا كلام السابقين ولم يتتبعوا كلام الأَولين من لدن ظهر الشعر وكانت الخطابة ، فالذي جعل الجاحظ يتميز على أقرانه وإخوانه ومساكنيه انكبابه على كتب السابقين واستظهاره لما

قاله الأولون حتى تميز عن غيره مِنْ مَنْ لم يقرأ ولم يجشم نفسه مؤونة البحث والاطلاع ولولا هذا البحث والاستقراء لكان الجاحظ في جهله كآبائه وأخوانه ممن لم يقرأ ولم يطلع أو لربما زاد على آبائه وإخوانه ومساكنيه في الدار والمحلة بمقدار بسيط هو ما اكتسبه من علوم وتجارب . هذا على فرض أَنَّهُ لم يطلع على أخبار الماضين ولم يقرأ للأولين فهل بعد هذا يمكن أن يقال بأن الجاحظ[1] وأشباهه والذين تقدموا على أهل زمانهم بالاطلاع والبحث حتى تميزوا ، هل يمكن أَنْ يجعل من هذا التميز أَمراً ناقضاً للعادة يصل إلى حد الإعجاز ؟! وأَنَّ من كان هذا شأنه يمكن أن يعارض القرآن ؟! إنَّ القول بهذا من أَعظم الجهل وأَشد الغباوة وهذا معنى قول الجرجاني رحمه الله [فمن أعظم الجهل وأشد الغباوة أن يجعل تقدم أحدهم لأهل زمانه من باب نقض العادة وأنْ يُعَدَّ معدَّ المعجز] وخلاصة القول وصفوته أن التميز لا يكون ناقضاً للعادة ، إلا إذا كان مطلقاً ، وهو الذي يدوم على العصور والدهور ، وتلك سِمَةُ القرآن الكريم ، وذلك إعجازه ، وأما ما عداه فهو تميز ناقص

---

(١) الجاحظ : عمرو بن محبوب الكناني بالولاء الليثي أبو عثمان الشهير بالجاحظ كبير أئمة الأدب ورئيس فرقة الجاحظية من المعتزلة مولده بالبصرة سنة ١٦٣ هـ فلج في آخر عمره ، وكان مشوه الخلقة ، مات والكتاب على صدره ، قتلته مجلدات من الكتب وقعت عليه وله تصانيف كثيرة . مات بالبصرة سنة ٢٥٥ هـ انظر الأعلام الجزء الخامس الطبعة الثالثة .

لا يعدو عصره وأنَّ ما أتى به الجاحظ في المتأخرين ، لا يفترق كثيراً عما جاء به ابن المقفع في الماضين وإنه إذا عجز السابقون عن مجاراة القرآن ومباراته ، فكيف بمن عاش على فتات موائدهم كالجاحظ وأشباهه ؟ وبذلك ينقطع ويبلس أولئك المغرضون المرجفون والذين يقولون لو وُجِدَ فلانٌ من الناس لاستطاع أن يعارض القرآن الكريم ويجاريه وصدق الحق حيث يقول :

﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ .

[فمثل هذه الطبقة إذن مع الصدر الأول ، وقياس هؤلاء الخلف مع أولئك السلف ، ما جرى بين ابن ميّادة وعِقَال :

قال ابنُ مَيَّادَة :

فَـجرْنا يَنابِيع الكـلام وبحْـرَه ... فأَصبحَ فِيهِ ذُو الرِّوَايَةِ يَسْبَحُ
وما الشِّعْرُ إلاَّ شِعْرُ قَيسَ وخندِف ... وقولُ سواهُم كُلْفَةٌ وتملّحُ

فقال عِقَالٌ يجيبه :

أَلاَ أَبلغ الرَّماحَ نقض مقالةٍ ... بها خَطِلَ الرَّمَّاحُ أو كاد يمزحُ
لقد خَرَقَ الحيُّ اليمانون قبلهم ... بحورَ الكلام تُسْتَقى وهي طُفَّحُ
وقـد عَلَّمـوا مـن بعـدهـم فتعلَّمـوا ... وَهـم أعـربـوا هـذا الكـلام وأَوضحـوا
فللسَّـابقيـن الفضـلُ لا تنكـرونـه ... وليـس لمخلـوقٍ عليهـم تَبجُّـحُ][1]

---

(١) الشافية / للجرجاني ١٣٦ / ١٣٧ .

بعد أَنْ قدّم الإمام الجرجاني رحمه الله الحديث حول الجاحظ وأشباهه والذين تقدموا أهل زمانهم بكثرة الاطلاع والبحث والتنقير ومدارسة فنون السلف والسير على خطاهم أشبه ما يكونوا بالنحل تغتذي بأريج الأنوار وطيب الأزهار ، وتملأ أجوافها من تلك اللطائف ثم تمجها أَرياً وتقذفها مذياً ، هذا الشأن في الإفادة من السلف والسير على خطاهم وإن الفضل لهم من قريبٍ أو من بعيد وإن الخلف وإن تميزوا في معنى من المعاني أو في صياغة من الصياغات إلا أن الفضل كله للسلف فهم أصحاب الفضل والقدم الراسخة في هذا الشأن يؤيد هذا الكلام ما قاله ابن ميّادة[1] لعقال :

فجرنا ينابيع الكلام وبحره فأصبح فيه ذو الرّواية يسبح
وما الشعر إلا شعر قيس وخندف وقول سواهم كلفة وتملح

فابن ميَّادة وهو يفخر بنفسه في تثقيف الكلام وتشقيق ضروب القول ، والخوض في كل بحر ، وفي المعاني الدقيقة إلا أنه لا ينسى أن ينسب الفضل لأهله ويشيد بالأوائل فهم أصحاب البادرة والفضل والأسبقية فلم ينس وهو في أوج فخره أن ينسب الفضل لأهله وإن كل هذا لا يعد شيئاً أمام الأصل من قيسٍ وخندف ، ويرد عليه عقال وكأَنَّهم في محاورة شعرية فخرية وإن الكلام ما قلت ، وإن الفضل

(١) ابن ميَّادة : الرَّماحُ بن أَبرد وميادة لقبٌ لأمه وجدته لأبيه سلمى بنت كعب بن زهير بن أبي سلمى .

للسابقين هم الذين فجروا بحور الكلام فاستقي منها من جاء بعدهم ، وقد علموا من بعدهم فتعلموا ، وهم أعربوا هذا الكلام وأوضحوا . . هذه المحاورة بين ابن ميادة وعقال تثبت أن للسلف ما لهم من القدم الراسخة في فنون القول وهذا ليس بالادعاء وإنما أمرٌ يعترف به الخلف ويقرونه . .

لقد خَرَقَ الحيُّ اليمانون قبلهم
بحورَ الكلام تُسْتَقَى وهي طُفَّحُ

وقد علموا من بعدهم فتعلموا
وهم أعربوا هذا الكلام وأوضحوا

فللسابقين الفضل لا تنكرونه
وليس لمخلوق عليهم تبجح

يقول الإمام الجرجاني رحمه الله [وفي الذي قدمت في أول الجزء[1] مفتتح هذه الرسالة من قول خالد بن صفوان : كيف نجاريهم وإنما نحكيهم ، وما أتبعته من قول الجاحظ في شأن العرب ، وفي أن الاقتداءَ بهم ، والأخذ منهم والتسليم لهم وأنه لا يستطيع أشعر الناس وأرفعهم في البيان أن يضاهيهم ، ويقول مثل الذي قالوه في جودة السبك والنحت ، وكثرة الماء والرونق - إلا في اليسير - غنىً لعاقل وكفاية] .

يريد أن يصل الإمام عبد القاهر الجرجاني رحمه الله إلى

(١) الرسالة الشافية صفحة (١١٨) .

المحصلة النهائية ، بعد كل ما أسهب فيه من مقدمات في الرد على أولئك المرجفين المغرضين ، الذين يقولون بأن القرآن الكريم لو وجد في غير عصر النبي ﷺ من العصور المتأخرة لأمكن معارضته ، فيقول الشيخ عبد القاهر : [وفي الذي قدمت في أول الجزء مفتتح هذه الرسالة من قول خالد بن صفوان : كيف نجاريهم وإنما نحكيهم] فخالد بن صفوان يقول : كيف نبيح لأنفسنا أن ندعي السبق والزيادة على الأولين ، ونحن إما نعيش على فتات موائدهم ، ونترسم خطاهم ، ونسير على منوالهم حذوك النعل بالنعل ، فكيف يمكن أن ندعي الزيادة عليهم ، وهم أصحاب التقدم ، أم كيف نسابقهم في الشوط ونحن إنما نعيش على أعراقهم وما أبدعوه من مواهب وما أحدثوه من فنون . .

والجاحظ هو الآخر يدعي للعرب الفضل على الأمم كلها في الخطابة والبلاغة ، ويناظر في ذلك الشعوبية ، ويجهلهم ويسفه أحلامهم في إنكارهم ذلك ، ويقضي عليهم بالشقوة والتهالك في العصبية ، ويطيل ويطنب .

ثم يقول : « ونحن أبقاك الله إذا ادعينا للعرب الفضل على الأمم كلها من أصناف البلاغة من القصيد والأرجاز ، ومن المنثور والأسجاع ومن المزدوج وما لا يزدوج ، فمعنا على ذلك شاهد صادق من الديباجة الكريمة والرونق العجيب والسبك والنحت الذي لا يستطيع أشعر الناس اليوم ولا أرفعهم في البيان أن يقول مثل ذلك إلا في اليسير والشيء

القليل »[1] .

إذا كان هذا هو شأن الجاحظ وهو أعلم بنفسه وبما يقول فإن في هذا مقنع وغنىً لعاقل وكفاية تدفع أي لبس أو شك يخالجه في أن في مقدور الجاحظ أو من على شاكلته مجاراة القرآن الكريم أو معارضته . .

اللهم إلا إذا ادعى أولئك السفهاء أن الجاحظ وأمثاله قادرين على مجاراة القرآن ولكنهم لم يفعلوا استحياءً وإشفاقاً ، مع أنَّه لم يؤثر عنهم شيء من ذلك ، ولو كان ذلك في مقدورهم لادعوه ، فأيُّ عاقلٍ تواتيه القدرة على مجاراة القرآن الكريم ثم لا ينسب ذلك لنفسه ، والمقام مقام تحدٍّ ، ويكون قد جاء بالإغراب والعجب العجاب . . ؛ أو يدَّعوا أن الجاحظ وأمثاله أحجموا عن ذلك مع قدرتهم عليه فضاموا أنفسهم وغمطوها حقها تعصباً ومجاملة للعرب الذين لم تواتيهم القدرة على منازعة القرآن أو معارضته ، فيكون مثل هذا الكلام من الركاكة والسخف بحيث لا يُجاب عن مثله ، ولا يُشْتَغلُ بالإصغاء إليه ، فضلاً عن الكلام فيه . . . وهذا معنى قول الشيخ عبد القاهر الجرجاني رحمه الله [**اللهم إلا أن يتجاهل متجاهل فيدعي في الجاحظ وأمثاله فضلاً لم يدَّعوه لأنفسهم ، أو يزعم أنهم** . . . .

---

(١) الشافية في إعجاز القرآن / للجرجاني / ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن الكريم / ١١٨ .

ضاموا[1] أنفسهم تعصباً للعرب فتشاهدوا لها بأكثر مما عرفوا ، وتواصفوها بمزية لم يعلموها ، فيفتح بذلك باباً من الركاكة[2] والسخف لايجاب بمثله ، ولا يشتغل بالإصغاء إليه فضلاً عن الكلام فيه] .

[واعلم أنَّهُ خُيِّلَ إلى قومٍ من جُهَّالِ الملاحدة أنَّهُ كان في المتأخرين من البلغاء كالجاحظ وأشباه الجاحظ من استطاع معارضة القرآن فترك خوفاً ، أو أنهم فعلوا ذلك ثم أخفوه ، لم يتصور تخيلهم ذلك حتى يقتحموا هذه الجهالة التي ذكرتها ، أعنى أن يزعموا أنهم كانوا عند أنفسهم أفصح وأبلغ من بلغاء قريش وخطبائهم ، وأن خطيبهم كان أخطب من قس وسحبان ، وشاعرهم أشعر من امرىء القيس ومن كل شاعر كان في العرب ، إلا أنهم صانعوا الناس فمنعوا أنفسهم الفضيلة ونحلوها العرب . وذاك أن محالاً أن يعتقدوا فيهم - أعني في العرب - ما اعتقده الناس ، وفي أنفسهم ما أفصحوا به من القصور عن مداناتهم ، وشدة الانحطاط عنهم ، ثم أن

---

(١) الضَّيْمُ : الظلم أو الإذلال ونحوهما قال المثقّب العبدي :

ونحمي على الثَّغْرِ المخُوفِ ونتَّقي بغارتنا كيدَ العِدَى وضُيُومَهَا

وقال آخر :

ولا يقيمُ على ضيم يُراد به إلا الأذلان عيرُ الحي والوتدُ
هذا على الخسف مربوطاً برمته وذا يشج فلا يرثى له أحدُ

(٢) الرَّكَاكةُ : رَكَّ الشيءُ رَكّاً ورَكاكةً ضَعُفَ وَرَقَّ .

المعجم الوسيط ج١ ط٢ .

يستطيعوا ما لم يستطعه العرب ويكملوا ما لم يكملوا له] .

وتتوالى الردود من الشيخ عبد القاهر الجرجاني رحمه الله على أولئك المرجفين المغرضين الذين لا يفتأون يثيرون الشبه ما بين حين وآخر ، ويدّعون أن هناك من يمكن أن يعارض القرآن الكريم وإن القرآن الكريم لو نزل في غير عصر النبي ﷺ من العصور المتأخرة لأمكن مجاراته والنسج على منواله .

يقول الشيخ : واعلم أنَّهُ خُيِّلَ إلى قوم من جُهَّالِ الملاحدة ، أي توهم هؤلاء الملاحدة مِنْ مَنْ طُمِسَتْ أَبْصَارُهُمْ وَبَصَائِرُهُم ، أَنَّ في المتأخرين عن عصر النبوة كالجاحظ وأشباهه من الكتَّاب والخطباء أَنَّ باستطاعتهم معارضة القرآن الكريم ، والسؤال لماذا لم يفعلوا ؟! قالوا بأنهم خافوا أن يقدموا على مثل ذلك ، فيبطش بهم ، فأحجموا عنه مع القدرة عليه وهذا شيءٌ نحن لم نسمع به عن الجاحظ ولم يؤثر عنه ، ولكنهم ادَّعُوا سِرّاً مكتوماً . .

والشيء الثاني : قالوا بأن الجاحظ لم يحجم عن ذلك ، بل أقدم بالفعل عليه بعد أنْ أحَسَّ في نفسه القدرة على الإتيان بمثله ، وأين ما صنع الجاحظ وأشباهه ؟! ومثلُ هذا العمل لا يخفى عادةً ، قالوا اخفوه ـ أي الجاحظ وأضرابه ـ فلم يظهروه وطمست مع الزمن معالمه وهذا من أعظم الأكاذيب وأعجبها ، وَكُلُّ هذه افتراءاتٌ لا دليل عليها ، وهي من وحي مخيلاتهم المريضة ، وتصوراتهم السقيمة ، فلم يكتفوا بما

قالوه من إعراض الجاحظ عن مجاراة القرآن الكريم تعصباً للعرب وغمطاً لحق نفسه ، حتى زعموا أن الجاحظ قد ترك ذلك خوفاً أو فعله ثم أخفاه ، وهي محضُ أباطيل وهواجيس وتصورات لا تصدر إلا عن حِسٍّ مريض وقلبٍ سقيم ، وإلا فهل كان في المتأخرين من الخطباء من يوازي قِسّاً وَسَحْبَان أو في الشعراء مَنْ يَبُزُّ امرأ القيس والنابغة ، ولعمر الله أن الجاحظ لا يجرؤ على مثل هذا الكلام حتى يدعيه ولك أن تعلم أن الجاحظ وغيره من الكُتَّابِ والشعراءِ إنما استمدوا مادتهم العلمية والأدبية من سابقيهم فنسجوا على منوالهم ثم جَدَّدُوا ، فهم في إنتاجهم البياني كالنحل تقطف من شتى الزهور ثم تخرج من بطونها شراباً مختلفاً ألوانه فيه شفاءٌ للناس ، ومحالٌ أنْ يعتقدَ الجاحظُ كُلَّ هذا الاعتقاد في العرب ، وَيَدِيْنَ لهم بالتقدم والفضل ، والقصور عن مجاراتهم أو مداناتهم ، ثم يزعمُ أنَّ باستطاعته معارضة القرآن والإتيان بما لم تستطعه الأوائل ، هذه مناقضةٌ لا يقبلها الجاحظُ ، والجاحظُ أبصرُ بعقله وبما يقول ، وهو لعمر الله بَرِيءٌ من كُلِّ هذهِ التُّهَمِ التي ألصقت به جُزَافاً وبذلك تَعْرِفُ أنَّ كُلَّ أقاويل خصوم القرآن ليست إلا تَخَرُّصَات ، وَمَسٌّ من الشيطان ، وأن نظمَ القرآن الكريم معجزٌ لهم ولغيرهم على مَرِّ العصورِ والأيام ولو كان بَعْضُهُمْ لبعضٍ ظهيراً . . .

ولايزال الشيخ الجرجاني رحمه الله في جلاء الشُّبه والتوهمات التي تطرأ على من في بصرهم غشاوة وعلى

قلوبهم عماوة ، فهم لم يقنعوا بعجز المتقدمين ومن جاء بعدهم من المتأخرين عن معارضة القرآن الكريم حتى قالوا : إن المعلوم والمعروف من عادات الناس وطبائعهم أن الواحد تواتيه العبارة ويطيعه اللفظ في معنى من المعاني ، لكنه يتحبس عليه في معنى آخر فينقطع ويبدو عاجزاً لا يحير والمعروف من أحوال الشعراء أنهم يجيدون الشعر في بعض أغراضه دون الأخرى ، فهناك من هو أشعر في المدح ولكنه لا يستطيع الهجاء ، وهناك من ينبغ في الوصف ولكنه يقصر عن الرثاء ، وكل من أجاد فناً شعرياً كان في غيره أقل إجادة من حيث السبك والحبك والتشبيهات والأوصاف وغير ذلك ، وترى من الكتّابِ من هو في الإخوانيات أبلغ منه في السلطانيات وترى العكس ، وهذا أمرٌ معروفٌ ظاهرٌ لا يشتبه ، وتبعاً لهذا فهم يقولون بأن العجز الذي ظهر في العرب عن معارضة القرآن الكريم ، لم يظهر لأنهم لا يستطيعون مثل ذلك النظم القرآني « لا » وإنما لأنهم لا يستطيعونه في مثل معاني القرآن الكريم ، من توحيد له عزت قدرته ، وتنزيه له في صفاته ، ودعاء له إلى طاعته ، وبيانٍ بمنهاج عبادته ، من تحليل وتحريم ، وحظر وإباحة ، ومن وعظ وتقويم وأمر بمعروف ونهي عن منكر ، وإرشاد إلى محاسن الأخلاق ، وزجر عن مساوئها واضعاً كل شيء في موضعه الذي لا يُرَى شيءٌ أولى منه ، ولا يُرى في صورة العقل أمرٌ أليق منه ، مودعاً أخبار القرون الماضية وما نزل من

مثلات بمن عصى وعاند منهم ، منبئاً عن الكوائن المستقبلة في الإعصار الباقية من الزمان ، جامعاً في ذلك بين الحجة والمحتج له والدليل والمدلول عليه ، ليكون ذلك أوكد للزوم ما دعا إليه ، وإنباء عن وجوب ما أمر به ونهى عنه ومعلوم أن الإتيان بمثل هذه الأمور ، والجمع بين شتاتها حتى تنتظم وتتسق أَمْرٌ تعجز عنه قوى البشر ولا تبلغه قُدَرُهُم ، فانقطع الخلقُ دونه، وعجزوا عن معارضته بمثله ، أو مناقضته في شكله » .

هذه شبهة أوردها الشيخ عبد القاهر وهو دعواهم أن عجز العرب وغيرهم عن معارضة القرآن الكريم ليس في نظمه ، وإنما فيما اشتمل عليه من المعاني التي ذكرناها سابقاً في العبادات والمعاملات إلخ ، والجواب ما قاله الشيخ الجرجاني رحمه الله [**واعلم أَنَّهُم في هذا كَرَام أَضَلَّ الهَدَفَ ، وَبَانٍ زَالَ عن القاعدة . . فإنَّ التحدي كان إلىَ أن يجيئوا في أي معنى شاءوا من المعاني بنظم يبلغ نظم القرآن في الشرف أو ما يقرب منه يدل على ذلك قوله تعالى : ﴿ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَـٰتٍ ﴾ أي : مثله في النظم ، وليكن المعنى بنظم مفترى لما قُلْتُمْ ، فلا إلى المعنى دُعيتم ، ولكن إلى النظم**] .

فإذن التحدي لم يكن في المعاني العامة التي اشتمل عليها القرآن ، وإنما في النظم والسبك وإلا فلو جئتم بمعان مكذوبة مفتراة فهي مقبولة منكم ، لكن بشرط أن تكون في مثل هذا السبك والنظم الذي هو من صنع العليم الخبير . . وهيهات

هيهات وأنّى لهم ذلك . . ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ .

وهذا هو معنى قول الجرجاني رحمه الله : [**فصل في جزء آخر من السؤال ، وهو أن يقولوا : إنا قد علمنا من عادات الناس وطبائعهم أن الواحد منهم تواتيه العبارة ، ويطيعه اللفظ في صنف من المعاني ، يمتنع عليه مثل تلك العبارة وذلك اللفظ في صنف آخر .**

فقد يكون الرجل ـ كما لا يخفى ـ في المديح أشعر منه في المراثي ، وفي الغزل واللهو والصيد أَنفذَ منه في الحِكَم والآداب ، وتراه يستطيع في الأَوصاف والتشبيهات ما لا يستطيع مثله في سائر المعاني ، وترى الكاتب وهو في الإخوانيات أبلغ منه في السلطانيات ، وبالعكس هذا أَمْرٌ معروف ظاهر لا يشتبه .

وإذا كان كذلك ، فلعل العجز الذي ظهر فيهم عن معارضة القرآن لم يظهر « لا » لأنهم لا يستطيعون مثل ذلك النظم ، ولكن لأنهم لا يستطيعونه في مثل معاني القرآن] .

ثم يتابع الشيخ السؤال ويأتي بصور أخرى يمكن أن تنبثق عنه فيقول : وقد يأتي أولئك المرجفون بصيغة أخرى للسؤال فينتقلون من الأغراض والمعاني التي اشتمل عليها القرآن من وجوه العبادات وسواها ويقولون فلنسلم لكم بأن القرآن لم يتحد إلى المعاني العامة والأغراض ، ولكن هناك معان دقيقة وغريبة سبق إليها القرآن الكريم والفضيلة دائماً للسابق فهو

الذي افترع هذه الحسناء وهو الذي سبق إلى تلك الجوهرة وإذا سبق القرآن الكريم إلى تلك الصدفة وشق عنها وأخذ ما خبىء فيها من جوهرة فكيف يتصور بعد ذلك أن يعمَد عامدٌ إلى تلك الصدفة ليستام منها جوهرةً أخرى ، وعلى هذا فكيف يتحداهم المولى سبحانه إلى مثل هذه المعاني الدقيقة والغريبة إذ أنَّ هذه المعاني قد سبق إليها القرآن الكريم ، فليس في مقدورهم الإتيان بها ، إذ أن من المعروف في الأحكام النقدية أنَّهُم يحكمون لشاعرٍ في معنى دقيق برع فيه وحاز فيه قصب السبق لا يجاريه فيه غيره ولا يدانيه لأنه قد حاز هذا المعنى الدقيق فَحَرَمَ منه الشاعرَ الآخر ، فالغالب والسابق لن يتحدى غيره إلى هذا المعنى الدقيق لأنه قد حازه وسبق إليه ، وإذا فُرِضَ أَنَّه تحداه فمعنى ذلك أنه قد طلب منه أمراً فوق طاقته وفوق مقدرته . .

هذا هو ما يقوله أولئك المرجفون المغرضون المعترضون دائماً يقولون : هذا الشأن ينطبق أيضاً على القرآن الكريم فقد حاز القرآن الكريم دقائق المعاني وغرائبها فكيف يتحداهم ويطلب منهم المعارضة فيها ، وإذا تحداهم وطلب منهم المعارضة فقد طلب منهم أمراً شاقاً عليهم يعجزون عنه ، ويسوقون عدداً من الشواهد الشعرية التي سبق إليها أصْحَابُهَا فكان أن غلبوا عليها واستبدوا بها ولو عَرَضَ لهذه المعاني التي سبقوا إليها غَيْرُهُمْ لافتضح . . . والجواب على هؤلاء بأن القرآن الكريم لم يتحدهم بالألفاظ المفردة ولا بغرائب

المعاني الدقيقة وإنما تحداهم « بالنظم » فالقرآن الكريم لم يطلب منهم أن يعبروا عن معانيه بأعيانها بنظم هو نظمه، وإنما إلى أن يجيئوا في أي معنى شاءوا، ولكن بنظم يوازي نظم القرآن الكريم أو يقترب منه في الشرف والفضيلة هذا وقد كانت العرب تعرف المعارضة، وتعرف شروطها والعهدة فيها، وهم أصحاب المفاخرات والمنافرات، فعجزهم أمام القرآن دليل كافٍ على أن نظم القرآن الكريم ليس في وسعهم ولا في وسع غيرهم من الإنس والجن ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً . . .

وهذا معنى قول الشيخ عبد القاهر الجرجاني : [**واعلم أن هذا السؤال يجيء لهم على وجه آخر، وفي صورة أُخرى، وأنا أَستقصيه، حتى إذا وقع الجواب عنه وقع عن جملته، وكان الحسم في الداء كله. وذاك أن يقولوا : إنه لا يصح المطالبة إلا بما يتصور وجوده، وما يدخل في حيز الممكن؛ وإنا لنعلم من حال المعاني أن الشاعر يسبق في الكثير منها إلى عبارة يُعْلَمُ ضرورة أنها لا يجيء في ذلك المعنى إلا ما هو دونها ومنحط عنها. حتى نقضي له بأنه قد غلب عليه واستبد به كما قضى الجاحظ لبشار في قوله :**

كان مثار النقع فوق رُؤوسنا وأَسْيَافَنَا لَيْلٌ تَهاوَى كَواكبُه[1]

---

(١) وأَمّا قول بشار :

كأَنّ مُثارَ النَّقْعِ فَوق رُؤوسهم وأسْيَافَنَا لَيْلٌ تَهاوَى كَواكبُهُ

فأكثر كتب اللغَة والأدب ترويه (فوق رؤوسنا) والرواية التي في =

. . . .

= الديوان أرشق وأعمق (فوق رؤوسهم) لأن النقع وإن كان فوق رؤوس الفريقين إلا أَنَّ الشاعر أراد أن يتوصل بجعل النقع فوق رؤوس الأعداء إلى إفادة أَنَّ سيوف جيش قومه كانت واقعة على رؤوس الأعداء مع ذلك النقع لأن أسيافنا مفعولٌ معه أو معطوفٌ عليه ، ولو قال : فوق رؤوسنا لما كان لذكر الرؤوس خصوصية إذ يكفيه أن يقول : فوقنا ، وهذا البيت هو الذي أكسب بشاراً شهرة في النبوغ في الشعر ، وذلك أَنَّه جمع فيه تشبيه مركب بمركب فجمع تشبيهين في تشبيه ، وبذلك فاق امرأ القيس في التشبيه في قوله :

كَـأَنَّ قلـوب الطيـر رطبـاً ويـابسـاً

لدى وكرها العناب والحشف البـالي

وقد نُقِلَ عن بشار أَنَّهُ قال : مازلت منذ سمعت قول امرىء القيس مهتماً بأن أشبه تشبيهاً مثله حتى قلت كَأَنَّ مُثار النّقع . . .
الديوان / تحقيق الطاهر بن عاشور / الجزء الأول / (٣٣٥) .

وقول عنترة بن شداد العبسي :

وخلا الذباب بها فليس ببارح غرداً كفعل الشارب المترنم
هَـزِجـاً يَحُـكُّ ذِرَاعَـهُ بـذِراعِـهِ قدْحَ المُكِبِّ عَلى الزِّنادِ الأجذمِ

يقول عنترة : يُصَوِّتُ الذبابُ حال حكه إحدى ذراعيه بالأخرى ، مثل قدح رجل ناقص اليد قد أقبل على قدح النار ، شَبَّهَ حك الذباب إحدى يديه بالأخرى بقدح رجل ناقص اليد قد أكل الجذام يديه فلم يبق منهما إلا بقية أطراف وهو يريد أن يقدح النار من الزند فتراه مكباً على الزند ليقدحه بما بقي من يديه ، هو هو الذباب حين يحك رجليه ببعضهما . والذي أكسب الصورة =

فإنه أَنشد هذا البيت مع نظائره ثم قال : وهذا المعنى قد غَلَبَ عليه بشار كما غَلَبَ عنترة على قوله :

وخَلاَ الذبابُ بها فليس ببارحٍ   غَرِداً كَفِعْلِ الشَّارِبِ المترنِّم

هزجاً يحكُّ ذِرَاعَهُ بِذِرَاعِهِ   قَدْحَ المكبِّ على الزِّنادِ الأَجذَمِ

قال : فلو أنَّ امرأ القيس عرض لمذهب عنترة في هذا لافتضح ، وليس ذاك لأن بشاراً وعنترة قد أُوتيا في علم النظم جملة ما لم يؤت غيرهما ، ولكن لأَنه إذا كان في مكان خبيء فعثر عليه إنسان وأخذه لم يبق لغيره مَرامٌ في ذلك المكان] ـ وهذا ما أثبتناه سابقاً في قولهم [وإذا سبق القرآن الكريم إلى تلك الصدفة وشق عنها وأخذ ما خبيء فيها من جوهرة فكيف يتصور بعد ذلك أن يعمد عامدٌ إلى تلك الصدفة ليستام منها جوهرة أخرى ـ وإذا لم يكن في الصَّدفة إلا جوهرة واحدة فعمد إليها عامد فشقها عنها استحال أن يستام هو أو غيره إخراج جوهرة أُخرى من تلك الصَّدفة . وما هذا سبيله في

= جمالاً قصر قوائم الذباب التي تتلاقى مع يدي الأجذم القصيرتين بعد أن أكلهما الجذام ، وعنترة يصف بهذا روضاً غِبَّ المطر وقد أخذ القوم في الشِّواء ، والذبابُ يحوم هنا وهناك في طنين وهذه صورة مألوفة تكاثر الذباب بعد الشِّوَاء . .

المُكِبُّ : المُنحني على الشيء ، الأجذم في البيت من تآكلت يداه بمرض الجذام . ببارح : لا يبارحها لا يزوالها ، غرداً : الغرد ، من التغريد والتطريب ، المترنم : الترنم ترديد الصوت بضربٍ من التلحين . والأبيات في المعلقة .

الشعر كثير لا يخفى على من مارس هذا الشأن فمن البيِّن في ذلك قول القُطَامِيّ :

فَهُـنَّ يَنْبِـذْنَ مـن قـولٍ يُصْبِـنَ بـه
مـواقِـعَ المـاءِ مـن ذِي الغُلَّـة الصَّـادِي

وقول أبي حازم :

كفـاك بـالشيـبِ ذنبـاً عنـد غـانيـةٍ
وبـالشبـابِ شفيعـاً أيُّهَـا الـرَّجُـلُ[1]

وقول عبد الرحمٰن بن حسان :

لم تفتها شمسُ النهار بشيءٍ غير أنَّ الشبابَ ليسَ يدُومُ]

وفي استعراض الشيخ عبد القاهر الجرجاني رحمه الله بهذه الأبيات إنما يتمثل بالأبيات الشوارد والتي لم يُسْبَقْ إلى معانيها ، فهي للسابق الذي عَثَرَ عليها فلم يدع لأحدٍ مطلباً في الوصول إليها بعد أن افتض بكارتها وظَفرَ بها ، ولو عرض

(١) يقول أبو هلال العسكري في كتاب ديوان المعاني : أخبرنا أبو أحمد عن الصُولي قال سمعت ابن الأعرابي يقول : لا أعرف في التفجع على الشباب ، وفي ذم الشيب أحسن من قول أبي حازم الباهلي على قرب عهده :

لا تكذبنّ فما الدُّنيا بأجمعها من الشبابِ بيومٍ واحدٍ بَدَلُ
شَرْخُ الشبابِ لقد أبقيتَ لي أسفاً ما جدَّ ذكرك إلا جَدَّ لي ثكلُ
كفاك بالشيب ذنباً عند غانيةٍ وبالشبابِ شفيعاً أيها الرجُلُ

ديوان المعاني لأبي هلال العسكري / الجزء الثاني / (١٥٢) الناشر مكتبة الأندلس ببغداد .

لهذه المعاني غيره من الشعراء لافتضح . .

[وقول البحتري :

عَـريْقُـونَ فـي الإفضـال يُـؤْتَـنَـفُ النَّـدَىٰ
لناشِئِهِمْ من حيثُ يُؤْتَنَفُ العُمْرُ[1]

يُؤْتَنَفُ : يُبتدأ ، يريد أن الكرم يولد معهم .

ولا ينظر في هذا وأشباهه عارفٌ إلا علم أنَّه لا يوجد في المعنى الذي يُرَى مِثْلُهُ ، وأن الأَمر قد بلغ غايته ، وأن لم يبق للطالب مطلب[2] .

وكذلك السبيل في المنثور من الكلام ، فإنك تجد فيه متى شئت فصولاً تعلم أن لن يُستطاع في معانيها مثلها ، فما لا يخفى أَنَّهُ كذلك قول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضوان الله عليه : « قيمة كل امرىء ما يحسنه » وقول الحسن رحمة الله عليه : « ما رأيت يقيناً لا شك فيه أَشبه بشك لا يقين فيه من الموت » ولن تعدم ذلك إذا تأملت كلامَ البلغاء ، ونظرت في الرسائل . ومن أَخص شيء بأن يُطْلَبَ ذلك فيه الكتب المبتدأة الموضوعة في العلوم المستخرجة . فإنا نجد أربابها قد سبقوا في فصول منها إلى ضرب من اللفظ والنظم

---

(١) الديوان المجلد الثاني / الطبعة الثانية / تحقيق حسن كامل الصيرفي / (٨٧٢) .

(٢) الرسالة الشافية للشيخ عبد القاهر الجرجاني ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن الكريم (١٤٠) .

أعيا من بعدهم أن يطلبوا مثله ، أو يجيئوا بشبيه له فجعلوا لا يزيدون على أن يحفظوا تلك الفصول على وجوهها ، ويرددوا ألفاظهم فيها على نظامها وكما هي] .

يقول الشيخ عبد القاهر الجرجاني رحمه الله : وما قلناه في المنظوم من قبل نقوله هنا في المنثور فقد وجدنا من الشعراء من تميزوا على غيرهم في فرائد وخرائد[١] سبقوا إليها واستبدوا بها فلو عرض لها غيرهم لافتضح كما في قول عنترة :

وخلا الذباب بها فليس ببارح
غرداً كفعل الشارب المترنم

وقول أبي حازم الباهلي :

كفاك بالشيب ذنباً عند غانية   وبالشباب شفيعاً أيُّهَا الرجل

هذا الكلام نفسه ينطبق على المنثور فإنك تجد فيه متى شئت فصولاً في الحكمة وفي الوصايا وفي المواعظ لا يقدر أَحدٌ أن يأتي بمثل النظم الذي سُبكت فيه حتى أصبح من بعدهم عالة عليهم فيما قالوا ، هذه الفصول أَبحر فيها أصحابها وأتوا بضرب من القول يقرب من الإعجاز في تراكيبها وفي إيجازها حتى كانت بحق فرائد في بابها . من هذا قول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضوان الله عليه :

---

(١) الخرائد : ج خَرِيْدَة والخريدةُ الدُّرَّة التي لم تُثْقَبْ وهي من النساء البِكْرُ الحَيِيَّةُ .

« قيمة كل امرىء ما يحسنه »[1] عبارة موجزة لكنها حوت الكثير من المعاني الجليلة والجميلة فهي أشبه ما تكون بجوامع الكلم فالجملة عبارة عن كلمتين مبتدأ وخبر ، المبتدأ نكرة موصوفة (قيمة) والخبر اسم موصول (ما يحسنه) أي الذي يحسنه تلك هي قيمة المرء الحقيقية ما يقدمه لمجتمعه ومن حوله ، والحسن رضوان الله عليه يقول : « ما رأيت يقيناً لا شك فيه أشبه بشك لا يقين فيه من الموت » . إنَّها الحقيقة الكبرى التي لا شك فيها كأس الموت الخالدة والتي لابد لكل مخلوق أن يتجرعها ، هذه الحقيقة ترى الناس واجمين أمامها يشيعون الأموات إلى قبورهم وهم يعلمون أنهم عما قريب بهم لاحقون ، فإذا ما انصرفوا عن دفن موتاهم عادوا إلى لهوهم وباطلهم وكأنهم لم يستبصروا هذه الحقيقة وكأنهم في شك منها وهذا معنى قول الحسن رضي الله عنه :

---

(١) (قيمة كل امرىء ما يحسنه) : قيمة مبتدأ مرفوع وعلامة رفعه الضمة الظاهرة على آخره وهو مضاف ، كلٍّ مضاف إليه مجرور وعلامة جره الكسرة الظاهرة على آخره وهو مضاف . امرىء : مضاف إليه مجرور وعلامة جره الكسرة الظاهرة على آخره « ما » اسم موصول مبني على السكون في محل رفع خبر المبتدأ ، يحسنه : فعل مضارع مرفوع والفاعل ضمير مستتر جوازاً تقديره هو والهاء ضمير متصل مبني على الضم في محل نصب مفعول به ، والجملة الفعلية يحسنه صلة الموصول لا محل لها من الإعراب .
وجوامع الكلم : الكلام القليل يحمل المعنى الكثير . .

« ما رأيت يقيناً لا شك فيه أشبه بشك لا يقين فيه من الموت » هذا النظم وذلك السبك من الإمام علي بن أبي طالب والحسن رضي الله عنهما لا يخفى أَنَّهُ ضربٌ من الإعجاز ، وإذا تأملت كلام البلغاء ونظرت الرسائل ، ولا سيما الكتب التي قننت العلوم ، ونظمت القواعد لن تُحرم شيئاً منها ، من تلك العبارات الرائقة التي أَدَّت الغرضَ ، وأعجزت بقوة بيانها ونظمها اللاحقين فقصروا عنها ولم يستطيعوا مجاراتها ولا مداناتها ولأصحابها الأسبقية في بابها ، وإذا لم يكن في الصدفة إلا جوهرة واحدة فعمد إليها عامدٌ فشقها عنها ، استحال أن يستام غيرُه إخراج جوهرة أُخرى من تلك الصدفة وما هذا سبيله في الشعر والنثر كثير لا يخفى على من مارس هذا الشأن ، وهذا معنى قول الإمام الجرجاني رحمه الله [ومن أخص شيء بأن يطلب ذلك فيه الكتب المبتدأة الموضوعة في العلوم المستخرجة فإنّا نجد أربابها قد سبقوا في فصول منها إلى ضرب من اللفظ والنظم أعيا من بعدهم أن يطلبوا مثله أو يجيئوا بشبيه له ، فجعلوا لا يزيدون على أن يحفظوا تلك الفصول على وجوهها ، ويرددوا ألفاظهم فيها على نظامها وكما هي] كل يصف الموت ، لكن هل يمكن أَنْ يأتي في وصفه بما قاله الحسن رضوان الله عليه ، فأصبح اللاحقون يرددون كلام السابقين ويتمثلون به لانقطاعهم عن مجاراته أو القدرة على مباراته ؛ على أَنّ هذه البلاغة من الحسن رضوان الله عليه والتي كادت أن تصل إلى حَدِّ الإعجاز

لم تكن لتستمر على هذا النحو في كلامه كله مدة حياته ، لأن هذه سمة القرآن الكريم وبلاغته المتميزة ، وذلك هو مناط إعجازه . .

[وإذا كان الأمر كذلك لم يمتنع أن يكون سبيل لفظ القرآن ونظمه هذا السبيل ، وأن يكون عجزهم عن أن يأتوا بمثله في طريق العجز عما ذكرنا ومثلنا . فهذا جملة ما يجيء لهم في هذا الضرب من التعلق قد استوفيته] .

وإذا كان الأمر كذلك والإشارة إلى ما سبق أن قدمناه وقرّرناه من قول أولئك المعترضين من أنّه قد علم من عادات الناس وطبائعهم أن الواحد تواتيه العبارة ويطيعه اللفظ في صنف من المعاني ، يمتنع عليه مثل تلك العبارة وذلك اللفظ في صنف آخر ؛ فقد يكون الرجل في المديح أشعر منه في المراثي ، وفي الغزل واللهو والصيد أَنفذَ منه في الحكم والآداب ونراه يستطيع في الأَوصاف والتشبيهات ما لا يستطيع مثله في سائر المعاني ، وترى الكاتب وهو في الإخوانيات أبلغ منه في السلطانيات وبالعكس وهذا أمر معروف ظاهر لا يشتبه . . وأوردنا في هذا قول بشار :

كأن مُثار النقع فوق رؤوسنا وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه

فهذا المعنى قد غلب عليه بشار واستبد به كما غلب عنترة في قوله :

وخلا الذباب بها فليس ببارح غرداً كفعل الشارب المترنم
هزجاً يحك ذراعه بذراعه قدح المكب على الزناد الأجزم

فلو أن امرأ القيس وهو من هو في علو كعبه في القريض عرض لمذهب عنترة في هذا لافتضح ، وكذلك السبيل في المنثور فإنك تجد فيه متى شئت فصولاً تعلم أنه لن يستطاع في معانيها مثلها ولن يقدر أحدٌ أن يأتي بمثل النظم الذي سبكت فيه ، ومما لا يخفى في ذلك قول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضوان الله عليه « قيمة كل امرىء ما يحسنه » وقول الحسن رحمه الله : « ما رأيت يقيناً لا شك فيه أَشبه بشكٍ لا يقين فيه من الموت » ولن تعدم إذا ما تصفحت كلام البلغاء والشعراء مثل هذه الفرائد والخرائد الكثير . وإذا كان الأمر ما ذكرناه والسبيل ما قررناه وهو أن بعض الشعراء ومثلهم الناثرين قد بزُّوا في مواضع وجاءوا بالخوارق وبتلك الألفاظ المتينة السبك الجزلة النظم والتي لم يستطع أن يجاريها فيها غيرهم ، إذا كان الأمر كذلك فما المانع أن يكون عجز العرب عن القرآن الكريم فلم يستطيعوا أن يحوموا حوله لأنه تميز عليهم كما تميز غيره من الشعراء والناثرين ، وإذا لم نستغرب تميز بعض الشعراء ممن مثلنا كبشار وعنترة وأبي حازم الباهلي وتميز قول الإمام علي والحسن رضي الله عنهما ، فما الذي يجعلنا نستغرب تميز القرآن الكريم على غيره .

وعلى هذا فالنتيجة أن العرب لم يكونوا عاجزين عن مجاراة القرآن الكريم أو معارضته لأنه معجز في حد ذاته « لا » وإنما لأنه وقع على معانٍ غلب عليها واستبد بها ، كما

غلب بشار في قوله : كأن مُثار النقع ، وكما غلب عنترة في قوله : وخلا الذباب بها فليس ببارح . . .

وليس ذاك لأن بشاراً وعنترة قد أوتيا في علم النظم جملة ما لم يؤت غيرهما ، ولكن لأنه إذا كان في مكانٍ خبيء فعثر عليه إنسان فأخذه ، لم يبق لغيره مرامٌ في ذلك المكان ، وإذا لم يكن في الصّدفة إلا جوهرة واحدة فعمد إليها عامدٌ فشقها عنها استحال أن يستام هو أو غيره إخراج جوهرة أُخرى من تلك الصّدفة ، وهذا معنى قول الشيخ عبد القاهر الجرجاني : [وإذا كان الأمر كذلك لم يمتنع أن يكون سبيل لفظ القرآن ونظمه هذا السبيل وأن يكون عجزهم عن أن يأتوا بمثله عن طريق العجز عما ذكرنا ومثلنا . فهذا جملة ما يجيء لهم في هذا الضرب من التعلق قد استوفيته] .

إذن فالعرب لم يكونوا عاجزين عن مجاراة القرآن الكريم أو معارضته ، وإنما الذي صدق عليهم في غير نظم القرآن من تلك الأبيات الفرائد والتي استبد بها أصحابها وتلك الفصول في الحكمة والموعظة كقول الإمام علي والحسن رضوان الله عليهما والتي استبد بها أصحابها أيضاً ، يصدق عليهم في نظم القرآن الكريم ، فالعرب لم يستطيعوا أن يحوموا حول القرآن الكريم لأنّه تميز عليهم ، كتميز الشعراء والناثرين كما قدمنا ، وعلى هذا فلماذا تستغربون عجزهم أمام القرآن ، ولم تستغربوه على الشعراء والناثرين . . هذا هو الاعتراض ساقه الإمام الجرجاني رحمه الله وهو يقول بعد ما ذكره من مقدمات

عن تفرد بعض الشعراء بأبيات هي بمثابة الخرائد والفرائد وتفرد بعض أصحاب القول المبين كالإمام علي والحسن رضوان الله عليهما وأنّه إذا كان كلامهم بمثابة المعجز والجوهرة إذا استامها صاحبها لم يبق لغيره مرام في الحصول عليها بعد أن استبد بها وغلب عليها ، إذا كان الأمر كذلك لم يمتنع أن يكون سبيل لفظ القرآن الكريم ونظمه هذا السبيل ، وأن يكون عجزهم عن المجيء بمثل القرآن كعجزهم عن المجيء بمثل قول بشار وعنترة والقطامي وأبي حازم الباهلي وغيرهم ، هذا هو الاعتراض ساقه الإمام الجرجاني يقول : [فهذا جملة ما يجيء لهم في هذا الضرب أي الاعتراض والتعلق به قد استوفيته] .

ثم يجيء الإمام بالجواب فيقول : [**وإذ قد عرفته فاسمع الجواب عنه ، فإنه يسقطه عنك دفعة ويحسمه عنك حسماً . واعلم أَنَّهم في هذا كَرَام قَدْ أَضَلَّ الهَدَفَ ، وَبَانٍ قَدْ زَالَ عَنِ القَاعِدَة ، وذاك أَنَّه سؤالٌ لا يتجه حتى يُقَدَّرَ أَنَّ التحدي كان إلى أن يعبروا عن معاني القرآن أنفسها وبأَعيانها بلفظ يشبه لفظه ، ونظم يوازي نظمه ، وهذا تقدير باطل**] .

يقول الشيخ عبد القاهر الجرجاني يمكن أن يكون لهذا الاعتراض نصيب من الواقع لو طولبوا بنفس معاني القرآن الكريم ، وبألفاظ هي ألفاظه ، ولكنَّ شيئاً من ذلك لم يحصل ، التحدي لم يكن إلى هذا ، وإنما يقال : اللغة العربية بابها واسعٌ فاختاروا من معانيها وألفاظها ما تشاءون وانظموا

على غرار القرآن الكريم ، هاتوا معان مفتراة ، أنتم تزعمون بأن ما جاء في القرآن الكريم من تشريعات هي محض افتراء ، ونحن لا نطالبكم بشيء من التشريعات أو العبادات التي اشتمل عليها القرآن ، ولكن نقول لكم هاتوا معانٍ مفتراة حتى ولو خالفت ما جاء به القرآن الكريم ، قولوا الأرض في السماء ، والسماء في الأرض وليكن قولكم هذا في مثل نظم القرآن الكريم وقوة سبكه ، ونحن نقبله منكم . . القرآن الكريم لم يتحدكم إلى نفس معانيه ، أو إلى ألفاظه نفسها ، إنما التحدي إلى أن تجيئوا في أي معنىً شئتم من المعاني بنظم يبلغ نظم القرآن في الشرف أو يقرب منه في الفضيلة يدل على ذلك قوله تعالى : ﴿ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ ﴾ أي مثله في النظم وليكن المعنى مفترى لما قلتم ، فلا إلى المعنى دعيتم ، ولكن إلى النظم . وعلى هذا فالاعتراض ليس في محله ، وعلى هذا فهو باطل ، وما ترتب على باطل فهو باطل ، وإذا كان كذلك كان كما قال الشيخ بناء على غير ساس ، كبَانٍ قد زال عن القاعدة ، ورمية في غير مرمى ، لأنها صُوِّبَتْ إلى غير هدف ، وممن لا يُحسن التصويب .

صفوة القول وخلاصته أَنَّ القرآن لم يتحد إلى المعاني ، المعاني مطروحة على قارعة الطريق ، القرآن تحدى إلى سبك اللفظ على المعنى ليأتي في مثل هذا النظم الذي يقهر ويسحر وتلك بلاغة القرآن الكريم . .

وأما تلك الأبيات التي غلب عليها أَصحابها واستبدوا بها

فمهما قيل في هذه الأبيات الشوارد والتي ادَّعى أصحابها أنها فرائد وخرائد وأنها لم يسبق إليها ، نقول : هل هذه جاءت من فراغ ؟ أم نتيجة التتَلمذ على السابقين والاستمداد من ثمار قرائحهم ، وتشمم الذي فاح من روائحهم وإلاّ لكانوا في عداد عامة زمانهم الذين لم يرووا ولم يحفظوا ، القرآن هو الذي جاء على غير مثال سابق ، هو البديع الذي لم يُسبق ، وذلك هو الإعجاز ، وبذلك يكون التحدي . .

تلـك المكـارمُ لا قُعْبَـانِ مـن لَبَـنٍ

شِيْبَـتْ بِمَـاءٍ فَعَـادَتْ بَعْـدُ أَبْـوالا



وختاماً

لا يسعني إلا أن أبتهل إلى المولى جلّت قدرته أن يسّر بعظيم فضله وإحسانه هذا الشرح الميسّر لهذه الرسالة الفاخرة في إعجاز القرآن الكريم « الرسالة الشافية » . وإنها حقاً شافية لكل من استنارت بصيرته في استبصار الحق وكان على نور من ربه فسيجد فيها بغيته . والله أسأل أن ينير بصائرنا بذكره ومراجعة كتابه العزيز ، وأَنْ يعلمنا منه ما جهلنا ويرزقنا تلاوته آناء الليل وأطراف النهار على الوجه الذي يرضاه عنا ، وأن يجعله شافعاً لنا ، وممن يقوده إلى الجنان وأن يلبسنا به الحُلَلْ ويسكننا به الظُلَلْ ، وأَنْ يختم بالصالحات أعمالنا إنَّه نِعْمُ المولى ونعم المجيب وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

الدكتور

عمر بن محمد عمر باحاذق

بسم الله الرحمن الرحيم

ثبت المصادر والمراجع

١ ـ كتاب الله الكريم « القرآن الكريم »
٢ ـ مسند الإمام أحمد بن حنبل
٣ ـ أُسْدُ الغابة في معرفة الصحابة لأبي الحسن محمد بن علي الجزري
٤ ـ إعجاز القرآن الكريم للإمام الباقلاني تحقيق السيد أحمد صقر
٥ ـ البيان والتبيين للجاحظ تحقيق السندوبي
٦ ـ دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر الجرجاني تحقيق محمود شاكر
٧ ـ ديوان امرىء القيس
٨ ـ ديوان البحتري تحقيق حسن كامل الصيرفي
٩ ـ ديوان بشار بن برد تحقيق الطاهر بن عاشور
١٠ ـ ديوان عبد الرحمٰن بن حسان
١١ ـ ديوان علقمة بن عبدة الفحل

١٢ ـ ديوان المعاني لأبي هلال العسكري
١٣ ـ الشعر والشعراء لابن قتيبة
١٤ ـ العمدة في صناعة الشعر ونقده لابن رشيق
١٥ ـ الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني
١٦ ـ الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء للمزرباني



بسم الله الرحمن الرحيم

فهرس الموضوعات